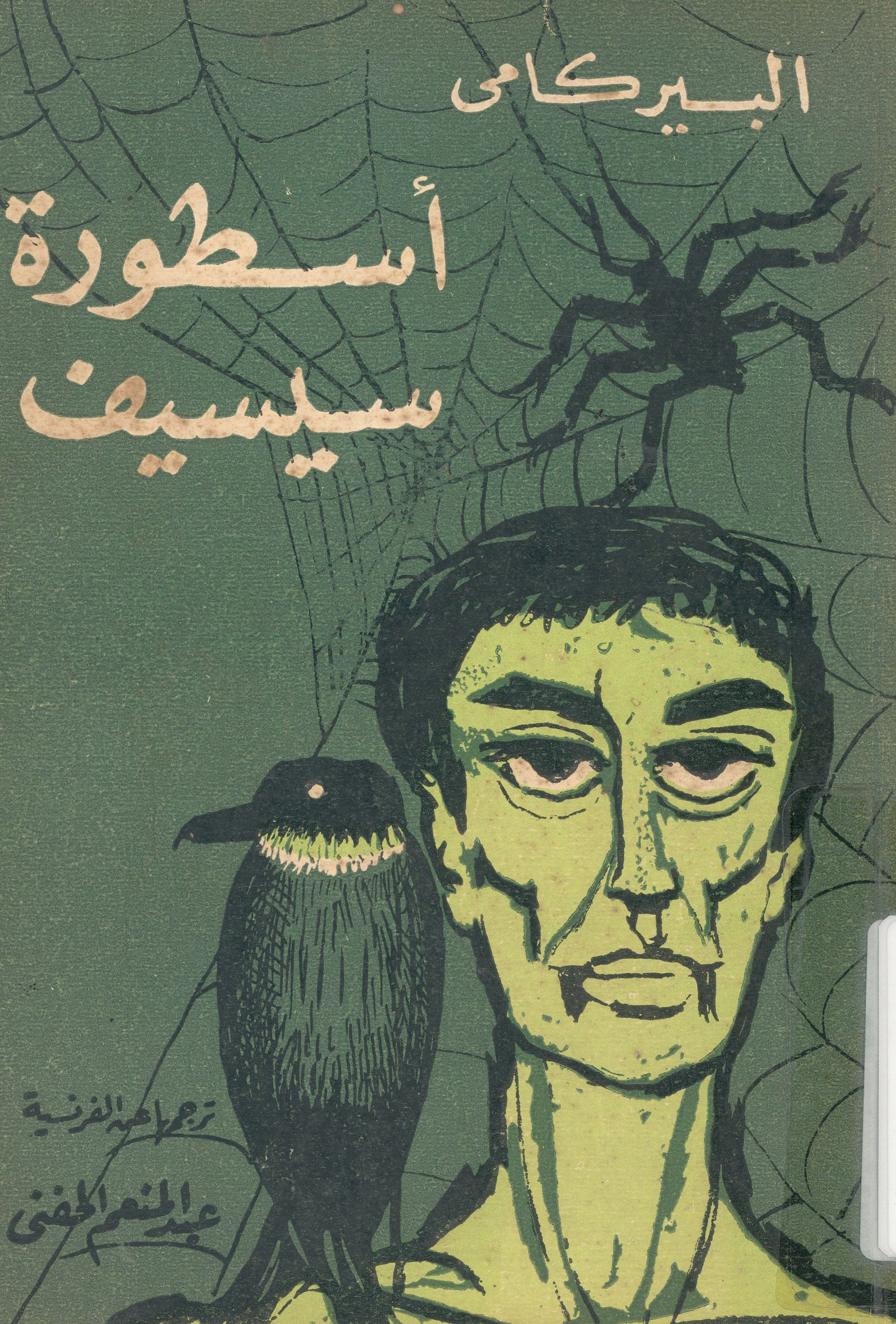


البير كامى
أسطورة سيسيف
ترجمها عن الفرنسية
عبد المنعم الحفنى

البير كامى

أسطورة سيزيف

ترجمها عن الفرنسية : عبد المنعم الحفنى

فيا روحى ، لا تطمحى الى الأبدية ،

وانما استنفدى حدود الممكن .

Pindar, Pythian III

محفوظة لمطبعة الدار المصرية ٢٢ شارع سامى بالمالية
تليفون ٣٢٥٧٨ — القاهرة (ج.ع.م)

إلى من وقفت الى جوارى كثيراً .. كثيراً .. وتعذبت من أجلى كثيراً .. كثيراً ..

إليك .. بعض ما سعيت له وتعذبت بسببه .. قبسا من الحقيقة ، هى جهد غيرى ، جهدت على أعتابه ، أمرغ رأسى كى أفوز به وأحصل عليه .. لك ولقومى ..

ع ٠ ١

مقدمة

قليل من الكتاب من يعيش فى خطر ، وهؤلاء هم الذين يكتبون صادقين . . .

ولأنهم يلامسون الموت ويرقصون على شفا الموت ، فشهادتهم شهادة صدق ، ورؤياهم هى الرؤيا التى نعجز عنها ، نحن المتهافتين على الدنيا ، المتكالبين على الوظائف ، المنسلين ، الواثقين فى الحياة .

أما الذين يعيشون فى خطر ، فهؤلاء لا يحيون الحياة ، وإنما هم يحيون الوجود ، أو أن الوجود ينبض ويتنفس ويتحرك بهم ، لأنهم لا يلدون للحياة ولا يعطونها أولاداً ، مجرد إضافات هى تكرار الماضى ، وإنما هم يرقون الحياة صعداً ، إلى جبال القمر ، طالبين بيض النسر ، مشرقين على الوجود إشراقة الشمس ، مجددين الحياة ، نافخين فيها قيما ومعان تأخذ بها إلى هناك .. عليين . . وما إدراك ما عليين . . هل أقول لكم ما هى ؟ إنها هذا النسيج الدقيق للحياة . . هذه الرؤيا الفريدة .. هذا النبض المتعالى .. هذا الوجود الخصب الريان .. هذه الخطورة وهذا الموت .. أن أعيش حياتى أنا .. وأموت ميتتى أنا .. وأرفض رفضى أنا .. وأعلى قيمى أنا .. وأن أكون للحياة وللوجود كالشمس ، وكالماء ، أعطى أبداً ، وأبذل دوماً .. حتى تمام النزف ، أو تمام النهاية .. وهيهات أن تكون للشمس نهاية ، أو للماء نفاد !

* * *

ولأنه أعطى وبذل ، قدره من يعطون مثله ، ومنحوه جائزة

« نوبل » سنة ١٩٥٧ ، وقال عنه دكتور « أندرز أوسترلنج » وهو يخاطبه باسم الأكاديمية السويدية ...

« من أجل إنتاجه الأدبي الهام
الذى أضـــاء به بحماس واضح
مشاكل الضمير الإنسانى فى عصرنا ».

★ ★ ★

لذلك أحببته .. من قلبي .. وبكل ما فىّ من نبض وحس ، لأنى انفعلت به وهو يقول : إن « أسطورة سيسيف » ، بالنسبة لى ، بداية فكرة تابعتها فى « المتمرد » . إنها فكرة تتناول مشكلة الانتحار ، كما تناولت « المتمرد » فكرة الجريمة . وكان تناولى المشكلتين دون الاستعانة بقيم سماوية تخلو منها أوروبا المعاصرة حالياً ، ولو مؤقتاً ، أو أنها قد شاهت فيها .

وموضوع « أســـطورة سيسيف » هو : مشروعية وضرورة أن نتساءل : هل للحياة معنى ؟ ومن ثم كان أمراً مشروعاً كذلك أن نتقابل ومشكلة الانتحار وجهاً لوجه .

وجوابى على هذا السؤال هو أنه حتى مع إنـكار وجود الله ، فالانتحار ليس مشروعاً .

وهذا الـكتاب الذى أقدمه هنا ، « أسطورة سيسيف » ، كتبته وسط الخراب الشامل الذى اجتاح أوروبا وفرنسا سنة ١٩٤٠ ، ومع ذلك ففى رأيى أننا ، حتى ونحن نعيش هذه العدمية ، فإننا نستطيع تجاوزها . وفى كل ما كتبت بعد ذلك ، حاولت أن أسير فى نفس الطريق ، ومع أن « أسطورة سيسيف » تواجهنا بمشاكل هائلة ، فإنها تبدو لى دعوة للعيش وللخـلق فى صميم صحراء الحياة .

والآن وقد بعدت الشقة بيني وبين ظروف كتابة هذا الكتاب ، فإني ما أزال حتى الآن أعيش بنفس الدوافع التي أملته عليّ . وربما كان هذا هو السبب الذي من أجله أحس أن كتابي هذا ، في بعض نواحيه ، أكثر كتبي قرباً إلى نفسي وترجمة لها ... » .

***

هذا هو « البير كامي » كما عرفته في « أسطورة سيسيف » وفي غيرها من كتاباته [1] .. دعوة للحياة وتبصيراً بها ، ونفاذاً إلى اللامعقول ، وثورة على العبث ، ولهاثاً في الوجود ، وثغاء لا يضيف للحياة ، لأن الحياة هي الحياة ، وستظل هي الحياة ، لكنه إثراء للفن والأدب .

أم كنا نصدق — نحن جيل ما بعد الحرب — دكتور عبد الرحمن بدوي ، وهو يزوي ما بين حاجبيه ، ويقلص عضلات وجهه ، ويتحسس كلماته وهو يعلنها في هدوء ، وكأنه يسخر منها : الانتحار أسمى مراتب الفكر ... ؟

كنا نتهافت على المدرجات ونتحشر فيها لنستمع إليه ، فقد قرأنا له من قبل « نيتشه » و « شوبنهور » : وقدمنا إليه وقتها نستزيد معرفة ، ونحاول أن نفك طلاسم الحياة ، بما اشتملت عليه من تعقيدات وحروب وثورات وفتن وإضرابات ، ويأس من مصيرنا في بلد كان محتلا ، يعاني فيه الشباب الإحباط .. وأي إحباط !!

وكان دكتور بدوي يزيدنا يأســاً على يأس بما كتب في « الموت والعبقرية » يقول لنا إننا من العناصر السامية ، وأننا نختلف عن العناصر الآرية ، وأن روحنا هي روح المزيج ، وليست روح المركب ، وأن

---

(١) أنظر كتابي عن « البير كامي : حياته وأدبه وفلسفته » مطبعة الدار المصرية ومكتبة راديو .

إحساسنا بالزمن هو إحساس آنات متفرقة ، وليس إحساس كل ..

وكنا نحنى رؤسنا .. ماذا بيدنا لنفعل ؟ لا مفر .. ما هو مقدور مقدور ..

ومع ذلك كنا نقرأ كتابات أخرى لمفكرين من غير العرب .. كنا نقرأ باللغات التى نحسنها وكانت قراءتنا كاحتجاج لم نكن نعيه وقتها . وتركنا « عبد الرحمن بدوى » يواصل زرايته بنا ، أو بالحياة التى تضج من حولنا ، يلهو باليأس الذى يشيعه كالخدر يدغدغ به أعصابنا وأعصاب الحس فى أمعائنا ، تركناه إلى أناس آخرين نستنطقهم أسرار الوجود .. وما زال «دكتور بدوى» يرفل فى يأس شوبنهور ، ويعيش بين جدران عقلانية أرسطو ، ويصر على أن هناك فارقاً بين الروح السامية والروح الآرية ، هو الفارق بين المزيج والمركب ، لكننا مع آخرين ، ومنهم « ألبير كامى » ، مع يأسه المؤمل ، ومع عجزه الثائر ، ومع تمرده اللاعجدى ، لأننا مع الحياة ..

* * *

وإذا كنا سنقرأ معاً كتاب كامى « أسطورة سيسيف » فيجب أن نتفق معاً على معنى أهم ما يرد فيه من كلمات ، وهى كلمة absurd ، فمن الأدباء عندنا من يترجمها إلى اللامعقول ، ومنهم من يترجمها إلى العبث ، لكننا سنأخذ بالمعنى الذى يقول به كامى نفسه . والواقع أن المتتبع لهذه الكلمة الفرنسية يجد أن الفرنسيين قد استخدموها ابتداء من الربع الثانى لهذا القرن عند ما ظهرت فلسفات تهاجم الحضارة الآلية الجديدة ، وتهاجم العلم بالتبعية ، الذى هو أساس الحضارة الآلية [1] .

---

(١) انظر كتابى « البير كامى : حياته ، أدبه ، فلسفته » نشر مطبعة الدار المصرية .

ويفسر قاموس « لاروس » كلمة absurd بأنها اللامعقول ، أو السخيف من الأصل اللاتيني absurdus التي تتكون من القطعين ab بمعنى كليـــة + surdus بمعنى أصم أو غبي . أما الاسم فهو absurditatem .

ويكثر الأدب الفرنسي من ترديد الكلمة ، ابتداء من الحرب العالمية الثانية . ويقول « أندريه موروا » في كتابه « من بروست إلى كامي « De Proust à Camus :

« الناس على أيامنا يضجون بمعنى الأبسوردية ، وتدور كتابات كامي حول الإنسان اللامعقول l' homme absurde ، وهو الإنسان المطحون بين الأمل وعدم الاكتراث .. والحقيقة أن فكرة الأبسوردية ليست فكرة جديدة . إن « مالرو » ككثيرين غيره ، كما يقول « باسكال » ، يرى عدداً ضخماً من البشر في القيود قد قضى عليهم مع آخرين بالموت . وبينما يشنق الأولون كل يوم أمام الآخرين ، يستمر الآخرون في الحياة كي يروا مصيرهم بأعينهم ، هذا المصير الذي سيحيق بهم يوماً مثلما حاق بإخوانهم . وهو المصير الذي ينتظر البشر كلهم . وهذا هو جوهر الأبسورد . إن الموت هو الدليل القاطع على أبسوردية الحياة « La mort est l' irréfutable preuve de l' absurdité de la vie ».

ويبرز من بين دعاة الأبسورد ثلاثة هم : مالرو وكامي وسارتر ، والثلاثة أشاعوا الكلمة في الأدب الفرنسي ، وفي الفلسفة ، وحددوا معناها من ناحية ، بأن عمقوه وجعلوه معنى فلسفياً لا يستقيم مع الكلام المادي المنثور ، واتفقوا فيه على صفة جوهرية ، هي استعصاء العالم على الخضوع للمقاييس العقلية .

والوعي الأبسوردي الفكري هو التجربة المنظمة المعقولة التي

يدخلها الإنسان مع الكون محاولا تنظيمه واستيعابه . لكن الإنسان ، فى احتكاكه بالكون لا يجد إلا الفوضى chaos ، وعدم إذعان الكون لعملية التعقيل التى يحاول الإنسان ممارستها معه . والنتيجة أن يخرج الإنسان من التجربة بأن الوجود غير مقبول ، وأن تجربته قاصرة عن إيجاد تفسير ، وأنه بين التجربة والتعقيل توجد هوة لا تجتاز .

ويتأثر كامى فى فكره الأبسوردى باثنين ، هما باسكال وكيركجارد ، والاثنان «يرفضان تعقيل الوجود» ، الأول بأن يرفض مطالب ديكارت المنطقية ، والثانى بالثورة على هيجل وفلسفته .

لكن كيركجارد لم يكن فرنسياً ، وكان باسكال فرنسياً ، فإذا كان باسكال يثور على عقلانية ديكارت الفرنسى كذلك ، فإن ديكارت وباسكال يكوّنان معاً قطبين هائلين لفلسفة تهضم فى جانب منها الوجود وتنظمه فى شكل « أنا أفكر ومن ثم فأنا موجود » ، وفى الجانب الآخر تقف عاجزة أمام الوجود وتتوه فيه ، وتعلن فى صراخ أنه « غير مفهوم ... ومع ذلك فأنا موجود » .

ولم يتشكك باسكال وحده فى جدوى العقل أمام الوجود ، فمع باسكال كان هناك فلاسفة محترفون ومدرسو فلسفة . ولكن الذين قاموا ضد العقل ، وثاروا على هيجل أو ديكارت أو العقلانيين ، إنما فعلوا ذلك مناهضة منهم للعقل كوسيلة لفهم العالم . هؤلاء كانوا يريدون إيجاد وسيلة يستطيعون بها أن يقيموا علاقة بين الفرد الإنسان والتجربة ؛ ونبذوا العقل ولكنهم قالوا بالحدس ، فكأنهم ثاروا على مطلق ليوجدوا مطلقاً آخر .

ولقد أكد برجسون نقص العقل كوسيلة لفهم الوجود ، لكنه لم يقل بأن العالم غير مفهوم . إنه مفهوم فى أعماقه ، وهذا يعنى أننا نستطيع

أن « نعلم » الوجود ، وأنه «معلوم» ، وإذا كان العقل قاصراً وحده عن استيعابه ، فالعقل يستطيع أن يستخدم وسائل أخرى يستعين بها على سد هذا النقص فيه .

لكن كامى يرفض العقل ، كما يرفض الحدس ، وأية وسيلة أخرى لعقلنة الوجود . ويرفض كل فلاسفة الأبسورد الاعتراف بأن الوجود ممكن الفهم ، بل العكس هو الصحيح : إنه غير قابل للفهم ؛ ولا يضع « كامى » مطلقاً آخر مكان المطلق العقلى أو المطلق الحدسى ، وإذا كان يقول بالأبسورد فهو لا يضع مطلقاً آخر محل المطلقات السابقة ، لكنه يستخدم الأبسورد استخدام الاسم فى اللغة ، وليس استخدام المطلق .

وإذن نتساءل : ما هو الأبسورد عند كامى ؟ إننا لو نفذنا إلى المعنى الذى يقصده فسنتفق على ترجمة الكلمة بالعربية : أهى اللامعقول أم العبث ؟

إن الأبسورد عنده علاقة بين الفرد وبين العالم ؛ علاقة عدم تطابق بين الاثنين ؛ والأبسورد ليس شيئاً فى ذاته ، لكنه مواجهة اثنين لبعضهما البعض ، والاثنان ليسا من الأبسورد ، لكنهما من خارجه ؛ إنهما خارجان عن ذاته ، وهما الوجود وعقل الفرد . فإذا كان عقل الفرد يجرب ، وتجربته شخصية بحتة ، فإنه ينتج عن ذلك أن هذه العلاقة علاقة شخصية بحتة ، وماهو شخصى لا يمكن أن يكون عاماً ، ولا يمكن أن يكون مطلقاً ، ومن ثمّ فلا يجوز أن نقول : هذا الشىء غير معقول ، بل ينبغى أن يقول فلان بعينه من الناس : « هذا الشىء غير معقول بالنسبة لى أنا » . وإذن فكامى عندما يقول : إن ما لا أفهمه غير قابل للفهم أو للعلم به ، فهو يعنى أنه غير قابل للفهم أو للعلم به من قبله هو نفسه ؛ ومع ذلك ، وهنا نستطيع أن نوجه ضربة قاصمة لكامى ، فإنه يحاول أن يرد

ما لا يفهمه هو إلى أن يكون قضية عامة ، أى أن ما لا يفهمه هو لا يفهمه كذلك غيره ، فهو إذن غير مفهوم بصفة مطلقة ؟ فغير المفهوم غير مفهوم بمعناه المطلق ، وهنا يقع كامى فى المحظور ، ويضطرب بين « المجهول » وبين «غير المعلوم» ، فما لاأفهمه أنا غير معلوم بالنسبة لى ، ولكنى أجعل منه مجهولا عاماً ، أى أجعل منه مطلقاً ، مع أن كامى ينكر المطلق ، ولا يقول بالتجربة العامة ، لكن بالتجربة الفردية . فلماذا يخطىء كامى فينكر المطلق مرة ، ثم يقيم من إنكاره مطلقاً آخر يضرب به المطلق الأول ؟

وهذا الاضطراب الذى يقع فيه كامى يعود إلى أنه لم يعن أن يكون فيلسوفاً صاحب مذهب متكامل،ولكنه أخلاقى moralist ، وهو يعترف صراحة بأنه لا يستطيع أن يقترب من المشكلة بعقلية الفيلسوف .

Je disais que le monde est absurde, et j'allais trop vite. Ce monde en lui-même n'est pas raisonable, c'est tout ce qu'on en peut dire. Mais ce qui est absurde c'est la confrontation de cet irrationel et de ce désir éperdu de clarité. L'absurde dépend autant de l'homme que du monde.

ويرى سارتر الفيلسوف — وبعقلية الفيلسوف — داخل أبسوردية كامى ، ويفرق بين الأبسورد كما يراه كامى ، وبينه كما يراه هو :

« إن فلسفة كامى هى فلسفة الأبسورد ، والأبسوردية عند كامى تقوم حول العلاقة بين الإنسان وبين العالم ، بين مطالب الانسان المعقولة وبين لا معقولية العالم . ويخرج كامى من هذه العلاقة بأفكار هى نفسها أفكار التشاؤم الكلاسيكى . وأنا لا أعرّف الأبسوردية بمعانى الوهم التى يعرفها بها كامى ، فما أسميه الأبسورد شىء مختلف تماماً : إنها عرضية الوجود . هذه العرضية التى لم تكن أصل وجوده ، ولكنها وجدت فيه .

فالأبسورد هي صفة الوجود التي لا نعرف لها سبباً ، والداخلة ضمن نسيج الوجود » .

من أجل ذلك أرى أن ترجمة الأبسورد باللامعقول أنسب وألصق من ترجمتها بالعبث ، فالعبث لا محل له هنا ولا معنى ، والداعون إلى ترجمة الأبسورد بالعبث يلتصقون بالمعنى اللغوي الذي يورده القاموس ، ويجهلون المقصد الفلسفي الذي يهدف إليه أصحاب دعوة اللامعقول .

وموقف الأبسورديين شبيه بمعنى من المعاني بموقف ترتيليان الذي قال : « لقد صلب ابن الله ولست أخجل من ذلك مع أنه يجب الخجل منه . وأن ابن الله قد مات ، فهذا جدير بالإيمان به حقاً ، لأنه خلو من المعنى . وأنه بعد دفنه قد قام من الأموات ، فذاك مؤكد حقاً ، لأنه محال » . واتخذ كيركجورد من كلام ترتيليان سنداً له في إيمانه الأبسوردي ، فقال قولة ترتيليان : « credo quia absurdum إنني لأومن بما هو لامعقول » . وإذن فلا مجال لإنكار أن « الأبسورد » هو « اللامعقول » .

عبد المنعم الحفني

محتوى الكتاب

أسطورة سيسيف

الى باسكال بيا À Pascal Pia

إن الصفحات القادمة تعالج الحساسية اللامعقولة التى تشيع فى العصر ، ولا تعالج فلسفة اللامعقول التى لم يعرفها زمننا . لذلك كان لزاماً علىّ أن أنبه ، منذ البداية ، إلى ما تدين به هذه الصفحات لبعض المفكرين المعاصرين ، ولم أقصد أبداً أن أخفى هذا ، فقد اقتبست منهم الكثير وذكرتهم كثيراً ، لكن من المفيد أن أنبه فى نفس الوقت إلى أن اللامعقول كنتيجة نهائية ، هو مجرد بداية من الصعب تحديد الاتجاه الذى ستؤدى إليه ، فهنا سنجد مجرد وصف صاف لمرض فكرى ، لم يبدأ بأية تعليقات ميتافيزيقية أو عقائدية ، وإنما هو يخوض الفكر حتى حدود هذا الكتاب لا غير ، وحتى النهايات التى يصل إليها .

هذا ما أملته علىّ بعض التجارب الخاصة كى أنبه إليه وأوضحه من البداية . .

البير كامى

اللامعقول والانتحار

هناك قضية واحدة خطيرة بجد وهى قضية الانتحار ، فالحكم على الحياة بأنها تستحق أن تعاش أو لا تعاش ، هو حكم يرمى إلى مستوى الإجابة على صميم قضية الفلسفة ، وكل ماعدا هذه القضية من قضايا الفلسفة — من أمثال : هل للعالم أبعاد ثلاثة أم لا ؟ هل مقولات العقل تسعة أو إثنا عشر ؟ — كل ذلك يأتى فى مرتبة ثانوية ، فهى مجرد ألعاب ، أما قضية الانتحار فهى القضية الأولى التى يجب أن يعنى الإنسان باتخاذ جواب حاسم فيها . فإذا كان حقاً أن الفيلسوف ، كما يقول نيتشه ، عليه أن يعظ بالمثل ، بأن يكون هو نفسه أول المطبقين لما يعظ به ، فإن لك أن تقدر أهمية تلك الإجابة ، لأنها إجابة تسبق قيامك بأى عمل . هذه حقائق يمكن أن يمسها القلب ، ومع ذلك فهى حقائق تتطلب الدراسة المتفحصة قبل أن تبين واضحة للعقل .

ولو سألت نفسى كيف يمكن أن أحكم أن هذا السؤال يتطلب إجابة أعجل من ذاك السؤال ، فإنى أجيب بأن الحكم على ذلك يكون بما ينطوى عليه السؤال من أفعال ، فأنا لم أر أحداً يموت بسبب مناقشته لقضايا أنطولوجية من أى نوع ، ولقد تخلى جاليليو عن الحقيقة العلمية بكل يسر وسهولة عندما تهددت هذه الحقيقة حياته مع أنها كانت من أهم الحقائق فى مجال العلم . ولو نظرنا إلى فعلته تلك نظرة خاصة[1]، لوجدناه على صواب ،

---

(١) من وجهة نظر القيمة النسبية للحقيقة ، وأما من وجهة النظر السلوكية فان هشاشة هذا الأستاذ العالم لتجعلنا نبتسم .

ذلك لأن تلك الحقيقة لم تكن لتستحق أن يضحي بنفسه من أجلها . وسواء كانت الأرض تدور حول الشمس أم أن الشمس هي التي تدور حول الأرض فهذه مسألة لا أهمية لها ، وهي حقيقة قضية لا مجدية . لكني على عكس ذلك أرى ناسا كثيرين يموتون لأنهم يحكمون على الحياة بأنها لا تستحق أن تعاش . وأرى ناسا آخرين يقتلون في سبيل الأفكار أو الأوهام التي تعطيهم سبباً من أجله يعيشون . « ومن الغريب أن يكون السبب الذي من أجله يعيش بعض الناس هو نفس السبب الذي يموت آخرون بسببه » .

لذلك استخلص من كل ما سبق أن معنى الحياة هو أعجل وأهم القضايا التي يجب أن تناقش . لكن كيف السبيل إلى الإجابة عليها ؟ إن الإجابة على كل مشكلة من المشاكل الكبرى (وأعني بها تلك المشاكل التي تؤدي إلى الموت أو تلك التي تزيد من الإحساس الحاد بالحياة) له منهجان فكريان : المنهج الأول هو منهج La Palisse ، والمنهج الثاني هو منهج دون كيخوته . والموازنة بين الوضوح وبين الغنائية هي وحدها القادرة على أن تيسر لنا ، في نفس الوقت ، الحصول على العاطفة والإشراقية . فموضوع الانتحار موضوع صغير الشأن جداً ، ومع ذلك فهو مشحون بالعاطفة ، لذلك نرى أن الديالكتيك القديم بكل ثقافته ، عليه أن يخضع لمنهج عقلي أكثر تواضعاً ، يستقي من الحكمة ويصدر عن الفهم .

ولم يحدث من قبل أن تناول أحد موضوع الانتحار كظاهرة اجتماعية . لكننا هنا على عكس ذلك معنيون من أول الأمر بالعلاقة بين الفكر الفردي وبين الانتحار ، فالانتحار لا يبدأ إلا داخل صمت القلب ، تماما كأننا حيال إنشاء تحفة فنية . والمنتحر نفسه يجهل هذه الحقيقة . إنه يشد الزناد في أمسية من الأماسي ، أو يقفز منتحراً من فوق سطح إحدى العمارات . ولقد قيل لي يوما عن أحد المديرين ممن انتحروا بإلقاء أنفسهم هكذا من حالق ، أنه فقد ابنته منذ خمس سنوات ، ومن يومها تغير حاله

جداً ، فلقد «دمرته» التجربة . وليست هناك كلمة دقيقة تصف حاله خير من تلك الكلمة « دمرته » ، فبداية التفكير معناه بداية التدمير، وليس للمجتمعات إلا أثر خفيف فى أمثال هذه الحوادث ، وإنما الدودة تبدأ فى قلب الإنسان،وعلينا أن نبحث عنها هناك ، وأن نتفهم هذه اللعبة الخطرة التى تبدأ من الوضوح ، وضوح موقف الإنسان حيال الوجود ، وتنتهى بأن يهرب من النور .

وهناك أسباب كثيرة للانتحار ، وعموما فإن أكثرها وضوحا ليست أكثرها قوة ودافعا للانتحار . ونادرا ما يحدث الانتحار عن روية ، ونادراً ما يمكن التحقق من أسباب الأزمة . وتتحدث الصحف كثيراً عن « أحزان شخصية » ، أو « مرض لا يرجى له شفاء » ، وهى أسباب قد تكون معقولة ، ولكن وراء أسباب المنتحر قد يكون هناك صديق تحدث إليه بجفاء وكان هو دافعه على الانتحار ، بما أحيا فى نفسه من كل أنواع البغض والكراهية والملل ، وألقى بها إلى الأمام بعد أن كانت معلقة[1] .

لكن إذا كان من الصعب تحديد اللحظة الحاسمة ، أو الخطوة الحاسمة التى يتحول فيها العقل إلى الانتحار ، فإنه لأسهل أن نستخلص من الانتحار نفسه النتائج التى يتضمنها . وقتل النفس ، هو بمعنى من المعانى ، كما هو فى الميلودراما ، اعتراف . إنك لتعترف بأن الحياة أكثر من أن تحتملها : أنك لا تفهمها . لكن لنكف عن تعمق هذه التشبيهات ، ولنعد إلى الكلمات العادية التى نستخدمها فى الحياة اليومية .

---

(١) سننتهز هذه الفرصة فنؤكد الصفة النسبية لهذا المقال ، فقد يمكن نسبة الانتحار لاعتبارات الشرف كالانتحارات السياسية التى كانت تتم ، كما يقولون ، احتجاجا على أوضاع معينة خلال الثورة الصينية .

إن الانتحار هو اعتراف بأن الحياة « لا تستحق ما يبذل من أجلها ، أو الحيـــاة ليست سهلة . إنك تؤدى فى الحياة الحركات التى يطلب منك الوجود أداءها ، وهذا لأسباب كثيرة ، وأول هذه الأسباب هو العادة: أنك اعتدت أن تؤدى هذه الحركات ، حركات الحياة . والموت يتضمن أنك قد اكتشفت ، ولو بالغريزة ، سخافة هذه العـادة ، وعدم وجود سبب معقول للاستمرار فى الحياة ، وجنون الحركات التى نؤديها فى الحياة كل يوم ، ولا جدوى أن نتعذب ونستمر فى العذاب .

وإذن فما هو هـذا الحس الذى لا يمكن التحقق منه ، والذى يسلب العقل النوم الذى يحتاجه ، والضرورى له فى الحياة ؟ إن عالماً لا يمكن تفسيره ، ولو بتفسيرات واهية ، هو العالم الذى اعتدناه . لـكننا لو نزعنا عنه فجأة أوهامه وأضواءه فإننا سنحس فيه بالاستلاب ، بأننا أغراب فيه . ولن يكون لنفينا علاج ما دام أننا قد سلبنا ذكرى البيت الذى ضاع منا ، وأمل الأرض الموعودة . وهذا التباعد بين الانسان وبين حياته ، بين الممثل وخشبة المسرح ، هو بالضبط الإحساس باللامعقول . وكل الأصحاء قد فـكروا يوما فى الانتحار ، ولذلك فإننا نرى وجود ارتباط مباشر بين هذا الاحساس وبين الحنين إلى الموت .

وموضوع هـــذا المقال هو بالضبط العـلاقة بين اللامعقول وبين الانتحار ، الدرجة المضبوطة التى بها يكون الانتحار حلا للامعقول . ويمكننا أن نقول إن مبدأ الرجل غير الغشاش هو أن ما يعتقد أنه الصواب هو نفسه ما يسيطر على أفعاله . وإذن فالاعتقاد فى لا معقولية الوجود لابد أن يملى عليه سلوكه . وحينئذ يكون من المناسب أن نتساءل ، بوضوح ودون عواطف كاذبة ، ما إذا كان الوصول إلى مثل هذه النتيجة الهامة يتطلب منا التخلى بأسرع ما يمكننا عن كل وضع غير مفهوم . إننى أتحدث طبعا عن البشر الميالين إلى أن يتوافقوا مع أنفسهم .

وهذه المشكلة وقد أوضحناها جلية قد تبدو بسيطة وغير قابلة للحل ، لكننا نفترض خطأ أن المشاكل البسيطة تتضمن إجابات لا تقل بساطة ، وأن الوضوح لا بد أن يشتمل على الوضوح . لكن قبل ذلك، وبإعكاس فروض المشكلة ، تماما كما لو كنا نقول هل نقتل أو لا نقتل أنفسنا ، فإنه يبدو أنه ليس هناك إلا حلان فلسفيان إثنان ، إما نعم وإما لا . وهذا سهل . لكننا يجب أن نتهاون قليلا مع أمثال هؤلاء الذين يظلون يتساءلون دون الوصول إلى حل . وأنا هنا أسخر قليلا ، فهؤلاء هم الغالبية : والاحظ أن من يجيبون أن «لا» يتصرفون كما لو كانوا يؤمنون بأن «نعم» ، وأنا هنا أصادق على قول نيتشه عنهم من أنهم في كل مايصدرون يمنون أن نعم بطريقة أو بأخرى . ومن ناحية أخرى فإن كثيراً ما يحدث أن من ينتحرون ، هم أنفسهم الذين يؤمنون بأن للحياة معنى . وهكذا نجد أمثال هذه التعقيدات باستمرار ، حتى ليمكننا أن نقول أنها تعقيدات لم تكن أبداً بمثل هذه الحدة كما هي في هذه القضية ، مع أن المنطق مطلوب هنا جداً . ومن المألوف أن نقارن بين النظريات الفلسفية وبين سلوك معتنقيها ، لكننا يجب أن نقول إنه من بين المفكرين الذين رفضوا التصديق على وجود معنى للحياة لا يوجد سوى كيريلوف من الأدباء ، وبيريجرينوس الأسطوري [1] ، وچول ليكييه الشخصية المتخيلة ، وكل منهم استخدم منطقه حتى تمام نهاية رفض الحياة . وكثيراً ما نذكر اسم شوبنهور كموضوع للضحك ، لأنه كان يمتدح الانتحار وهو يتصدر مائدة حافلة . وليس موضوع الانتحار بالموضوع الذي يهزل فيه الفيلسوف ،

---

(١) سمعت عن كاتب عاش في فترة مابعد الحرب، وحاول أن يبز بيريجرينوس، فانتهى من تأليف كتابه وانتحر لكي يلفت الأنظار إلى الكتاب ، ولفت أنظار الناس فعلا ، لكن لكي يحكموا على الكتاب بأنه ردىء .

وطريقته فى تناول ما هو مأساوى ، بشكل ليس جاداً ، ليست بالطريقة الخطيرة ، لكنها طريقة تساعد على إعطاء صورة عن صاحبها .

وفى مواجهة مثل هذه التناقضات والمتاهات هل يجب أن نخلص إلى أنه ليست هناك علاقة مابين الرأى الذى نكوّنه عن الحياة وبين التصرف الذى نأتيه حيالها ، بأن نتركها وننتحر ؟ ليكن : لكن لاينبغى أن نبالغ فى هذا الشأن ، ففى تعلق الإنسان بالحياة،هناك شىء أقوى من كل الأرزاء التى فى العالم . وحكم الجسد حكم صالح كحكم العقل ، والجسد ينكص أمام الزوال .

ونحن نندمج فى عادة الاستمرار فى الحياة قبل أن تكون لنا عادة التفكير . وفى ذلك السباق الذى يسرع بنا يوميا إلى الموت يتصدر الجسم القيادة ، وبالاختصار فإن جوهر هذا التناقض يكمن فيما سأسميه فعل المفاداة ، لأنه جوهر أقل وأكثر من يكون انحرافا بالمعنى الباسكالى . والتفادى هى لعبة لا اختلاف فيها ، وفعل المفاداة النموذجى ، التجنب المميت الذى يكون العنصر الثالث فى هذا المقال ، هو الأمل . الأمل فى حياة أخرى «يستحقها» الإنسان ، أو أنها حيلة يتحايل بها من يعيشون لا من أجل الحياة نفسها ، بل من أجل فكرة عظيمة تتجاوزها ، تنقيها ، تعطيها معنى وتخدعها .

وهكذا يسهم كل شىء فى تمدد الاضطراب والبلبلة . وحتى الآن لعب الناس بالألفاظ وادعوا أنهم يؤمنون بأن رفضهم إعطاء معنى للحياة يؤدى بالضرورة إلى الإعلان عن أنها لاتستحق أن تعاش . وفى الحقيقة لايوجد مقياس عام ضرورى يقاس به هذان الحكمان . وليس على الإنسان إلا أن يرفض أن يخدع بهذه البلبلة ، وهذا التباعد ، وهذه المفارقات التى أشرنا إليها من قبل . علينا أن نكنس كل شىء وننحيه جانباً ، وأن نتجه رأساً إلى المشكلة الرئيسية .

إن الإنسان يقتل نفسه لأن الحياة لا تستحق أن تماش ، هذه حقيقة مؤكدة — لكنها مع ذلك حقيقة لا جدوى منها لأنها تكرار لما سبق . لكن هل هذه الإهانة فى حق الوجود ، هذا الإنكار التام ، يتأتى من واقعها أنها بلا معنى ؟ هل لا معقوليتها تتطلب من الفرد أن يهرب من خلال الأمل أو الانتحار — هذا ما يجب أن يوضح ، وأن نتابعه ونبينه مع تنحيتنا لكل ما عدا ذلك .

هل يفرض اللامعقول الموت كحتمية ؟ هذه المشكلة لا بد أن نعطيها الأولوية على ما عداها من مشاكل ، خارج كل مناهج الفكر وبصرف النظر عن النشاطات الأخرى للعقل الذى لا يبالى بها كمشكلة . ولا محل لوجود ظلال من معان ، أو متناقضات مما يمكن أن يدخله دائما علم النفس والعقل « الموضوعى » فى كل المشاكل ، لا محل لوجود هذا كله فيما نحن بصدده ، وفى هذا الحماس . وإنما ما نحن بصدده يتطلب فكرا منطقياً بمعنى آخر . وهو أمر ليس سهلا .

من السهل دائما أن نكون منطقيين . ومن المستحيل تقريباً أن نكون منطقيين حتى النهاية المرة . والذين يموتون بأيديهم إنما يموتون لأنهم يتابعون نتائجهم حتى نهاياتها بعاطفية . إن التفكير فى الانتحار يعطينى فرصة كى أثير المشكلة الوحيدة متى تهمنى : هل هناك منطق حتى نقطة الانتحار ؟ إننى لا أستطيع أن أعرف ما لم أتابع بلا عاطفية مغامرة ، وفى ضوء الشاهد الوحيد ، وهو المنطق الذى اقترح هنا مصدره . وهذا هو ما أسميه المنطق اللا معقول . كثيرون بدأوه . لكنى لا أعلم حتى الآن ما إذا كانوا قد التزموا به حتى النهاية .

وعند ما كشف كارل يسبرز عن استحالة تصور العالم كوحدة أعلن : « هذه الحدية أدت بى إلى نفسى ، إلى حيث أصبح من غير الممكن أن أنسحب خلف نظرة موضوعية لست أنا سوى ممثلها ، حيث لا أنا نفسى ، ولا وجود الآخرين قد عاد موضوعا لى » .

ولقد أثار كارل يسبرز ، ولم يكن الأول فى ذلك ، تلك الصحراوات بلا ماء التى يصلها الفكر حتى حدودها . ولم يكن كارل يسبرز رائداً ، لقد ذهب إلى ما ذهب إليه غيره ، هذا مؤكد ، لكن غيره كان تواقا إلى الخروج من هذه الصحراوات ، ووصل إلى مفترق الطرق حيث يقف الفكر ويتردد كثير من البشر ، بل وبلغه كثير من أكثر الناس تواضعاً . وهناك ضحوا بأثمن ما لديهم : حياتهم . وآخرون، كانوا ملوك العقل ، وسلبوا أنفسهم حياتهم كذلك ، لكنهم سبقوا بأن دفعوا فكرهم للانتحار فى ثورته هو ذاته .

أما المجهود الحقيقى ، فهو أن يبقى المفكر هناك ، بقدر ما يمكنه ، وأن يفحص متمعنا هذه النباتات الغريبة التى لا تنبت إلا فى تلك المناطق النائية ، وأن يحظى النظر الثاقب والصبر النافذ بالفرجة على هذا الحفل الإنسانى الذى يتجاور فيه اللامعقول والأمل والموت . وإذن يستطيع العقل أن يحلل أشكال هذا الرقص البدائى والرهيف مع ذلك ، قبل أن يبدأ فى تصويرها ومعايشتها هو نفسه .

الحوائط اللامعقولة

إن المشاعر العميقة ، كالأعمال العظيمة ، تعنى دائما أكثر مما تقصد أن تقوله . وانتظام دفعة الروح أو نكوصها قد نعثر على مقابله فى عادات السلوك أو التفكير ، أو نجده مرة أخرى فى نتائج لا تعلم عنها الروح شيئاً . فالأحاسيس العظمى ، ومعها عالمها الخاص بها ، مهما كان رائعا أو بشعاً ، تضىء بما فيها من حماس عالما منطوياً تجد فيه مناخا لها . وهناك عالم للغيرة ، وعالم للطموح ، وللأنانية ، أو للكرم .

والعالم هو بمعنى آخر اتجاه عقلى أو ميتافيزيقى . وما يصدق عن الأحاسيس المتخصصة المتعارف عليها سيصدق أكثر عن الانفعالات غير

المحددة أصلا ، والغامضة ، والمحددة فى نفس الوقت ، والنسائية و « الحاضرة » مع ذلك ، تماما كالانفعالات التى تثار عندما تلتقى بالجمال و يثيرها اللامعقول .

وقد يعثر الواحد منا عند ناصية أى شارع على اللامعقول ، ويجبهه الإحساس به وجهاً لوجه ، ومع أنه إحساس عار وهو ميئس فى عريه ، ومع أنه واضح جلى كالضياء ، لكنه بلا بريق ، فهو إحساس يهرب ويفلت من صاحبه . لكن هذه الصعوبة نفسها تستحق منا التفكير ، من المحتمل أننا قد نظل نجهل شخصاً ما للأبد ، وأننا سنظل نرى فيه شيئاً لا يمكننا أن نمسك به ، لكنى لم أعرف « عملياً » أحداً تعرفت عليه بسلوكه وبمجموع أفعاله ، وبالنتائج التى تحدثها فى الحياة .

ونفس الشىء يصدق على كل هذه العواطف غير المعقولة التى تستعصى على التحليل . إننى أستطيع أن أحددها عملياً ، بأن أجمع كل نتائجها بالذكاء ، وأمسك بكل مظاهرها وألاحظها ، وأحدد صورة عامة لعالمها . ومن المؤكد أننى مع أنى رأيت نفس الممثل مئات المرات ، فإنى لن يتيسر لى لنفس السبب أن أعرفه أكثر من ذلك شخصياً .

مع ذلك فلو أنى عددت الأبطال الذين تلبّسهم ، وقلت إنى أعرفه أكثر فى الشخصية رقم مائة من الشخصيات البطولية التى مثلها ، فإن ذلك سيبدو كأن به بعض الحقيقة . لأن هذ التناقض الواضح هو نفسه اعتذار له مبرراته فهو يفيد أن الإنسان يحدد نفسه بأن يوهم نفسه بأنه يؤمن بأشياء إيمانه بدوافعه المخلصة. وهكذا نمثر على مشاعر لا تؤتى لأنها مطموسة داخل القلب ، لكنها تبين وتتكشف بما تتضمنه من أفعال وما تتخذه من مواقف عقلية . ومن الواضح أنى بهذه الطريقة التى أتحدث بها فإنى أحدد منهجى ، لكن من الواضح كذلك أن هذا المنهج الذى أحدده لنفسى هو منهج تحليلى وليس منهجاً معرفياً ، لأن المناهج تعنى متيافيزيقيات ،

واستخدامها يؤدى إلى نتائج ولو عن غير وعى، لم تكن هذه المناهج هى تدرى بها . وبنفس الطريقة فإن الصفحات الأخيرة فى كتاب من الكتب تتضمنها الصفحات الأولى منه . ومثل هذا الربط لا يمكن تجنبه . والمنهج الذى حددته هنا يعترف بأن كل معرفة صحيحة هى معرفة مستحيلة ، فالمظاهر وحدها هى التى يمكن رصدها ، وهى التى تلهب الآخرين بالإحساس بها .

وإذن فليس علينا إلا أن نمسك بهذا الإحساس المفلت للامعقول فى عوالم الذكاء وفى فن الحياة والفن نفسه ، هذه العوالم المختلفة ومع ذلك فهى شديدة الترابط . وما يزال مناخ اللامعقول فى البداية . والنهاية هى عالم اللامعقول ، وهى ذلك الموقف الذى يقمه العقل والذى يضىء به العالم بألوانه الحقيقية لكى يبرز وجهه المميز الذى لا يهدأ والذى اكتشفه فيه.

* * *

إن كل الأفعال العظيمة ، وكل الأفكار العظيمة لها بدايات مضحكة . وكثيرا ما تولد الأعمال العظيمة على ناصية أحد الشوارع ، أو على عتبة أحد الأبواب الدوارة لمطعم من المطاعم . ونفس الشىء مع اللامعقول ، فعالم اللامعقول أكثر من أى عالم آخر، يستقى نبالته من هذا الميلاد المنحط . وهو فى بعض المواقف قد يتخذ شكل الإجابة : « لا شىء » ؛ عند ما نسأل إنسانا عما يفكر فيه ؟ ولا شىء هذه قد لا تعنى سوى صرف نظر السائل عن حال المسئول .

وهذه الحقيقة يدركها جيدا كل من جرّب الحب . لكن لو كانت إجابة « لا شىء » هذه إجابة مخلصة ، ولو كانت ترمز لهذه الحالة الشاذة للعقل حيث يكون الخواء قد صار امتلاء ، وسلسلة الحركات اليومية قد انكسرت ، والقلب يسعى عبثا خلف رابطة تعيد إليه اتصالاته ، فإنها تبدو

عندئذ كما لو كانت هى علامة اللامعقول الأولى .

إن الذى يحدث هو انهيار فى ديكورات المسرح . النهوض مبكراً . الترام . أربع ساعات فى المكتب أو المصنع . الغداء . الترام . أربع ساعات عمل . العشاء . النوم . ويوم الاثنين، والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة والسبت ، ونفس الإيقاع — نفس الطريق يسيرون فيه معظم الوقت . لكن الـ « لماذا » تندفع إلى الشفاه يوما من الأيام ، وعندئذ يبدأ كل شىء وقد بدأ يلونه السأم وتصحبه الدهشة . « بدأ » — هذه كلمة مهمة . إن السأم يأتى فى نهاية كل فعل من الحياة الآلية ، لكنه فى نفس اليوم يقدم الاحساس بالوعى . إنه يوقظ الوعى ويثير ما يتلوه . وما يتلوه هو العودة التدريجية إلى التسلسل ، أو أنه الصحو المحدد . وبعد نهاية الصحو تأتى نتيجة هذا الصحو فى الوقت المناسب : وهى الانتحار أو الشفاء .

والسأم فى ذاته شىء ممرض . لكنى هنا أقول إنه حسن ، لأن كل شىء يبدأ بالوعى ، ولا شىء يستحق أن يكون شيئاً إلا من خلاله . وهذه الملحوظات التى أسوقها ليست من عندى ، لكنها ملحوظات قد يراها أى إنسان ، لأنها ملحوظات عادية ، وهى كافية ، على الأقل حتى الآن ، لعمل تخطيط سريع يبحث فى أصل اللامعقول .

وبالمثل ، وخلال كل أيام الحياة السقيمة يستمر الزمن ، لكن هناك لحظة نحس فيها أننا نحن الذين يجب أن نسّير الزمن . إننا نحيا فى المستقبل : « الغد » ، و « بعدين » و « عندما تكون قد اختطت طريقك » و « ستفهم عندما تكون قد كبرت فى السن » . من أمثال هذه الاجابات الغريبة . إنها إجابات عجيبة ، لأنها إجابات إن دلت على شىء فإنما على أن صاحبها فى طريقه للموت . مع ذلك ففى يوم من الأيام يلحظ أحد الناس أنه قد بلغ الثلاثين ، أو يقول أنه قد بلغها .

وهو إذ يقولها يؤكد شبابه . لـكنه فى نفس الوقت يضع نفسه فى مواجهة الزمن ، يقيم علاقة بينه و بين الزمن . إنه يقف مكانه فى الزمن وهو يعترف أنه يقف من الزمن عند نقطة معينة على منحنى ، وهو يرى أن هذا المنحنى يسير به حتى نهايته . إنه ينتمى للزمن ، ويتملكه الخوف ، الفزع . وفى تملكه للخوف يعترف هو نفسه بأن الزمن أعدى أعدائه . الغد . لقد شبق من أجل الغد ، مع أن كل ما فيه كان يجب أن يرفض الغد . وتلك الثورة ، ثورة اللحم ، هى اللامعقول (١) .

خطوة أخرى وبعدها تزحف الغرابة ، الغرابة التى نحس بها أن العالم « كثيف » ، أن الحجر شىء خارج عنا ، أجنبى عنا ، أن الطبيعة أو المنظر الطبيعى ينفينا ، إنه ينفينا نفياً مركزاً . فى كل ما هو جميل هناك شىء لا إنسانى . وهذه التلال ، ورقة السماء ، وخطوط هذا الشجر فى هذه اللحظة بالذات ، كلها تفقد المعنى الوهمى الذى نلبسه لها ، ومن ثم تبتعد عنا ، وتزيد فى تباعدها حتى لتصير أبعد من الجنة المفقودة . إن العالم يقف معاديا لنا عبر آلاف السنين . وعندئذ لا نعود نفهمه . للحظة ، لأننا فهمنا فيه لقرون الصور والرسوم التى كنا قد نسبناها له من قبل ، ولأننا من الآن فصاعد قد صارت تنقصنا القوة التى بها نستخدم هذه الحيلة .

العالم يتجنبنا لأنه يعود إلى نفسه . يصير نفسه من جديد . هـــذا الديكور المسرحى وقد قنعته العادة يصير ذاته من جديد . إنه ينسحب منا ويقف بعيداً ، مثلما هناك أيام نرى فيها وجها مألوفا لامرأة ، فنرى فى هذا الوجه ، مع أنه وجه امرأة غريبة ، نرى فيه وجه امرأة أخرى

---

(١) لـكنها ليست اللامعقول بمعناه الصحيح ، لأن هذا التعريف لم أقصد أن يكون تعريفا لـكنه مجرد أحد مواصفات اللامعقول ، أو مواصفات الأحاسيس التى قد تصف « اللامعقول » لـكنها لا تحدده .

أحببناها يوما من الأيام ، ربما منذ شهور ، وربما منذ سنين . وربما أثار ذلك رغبة فى شىء يتركنا فجأة وحيدين . لأن وقته لم يحن . وهـــذا الإحساس . هذا الإحساس بالكثافة ، وهذه الغرابة التى نراها فى العالم ، هى اللامعقول . والبشر كذلك يخفون اللاإنسانى ، ففى لحظة من لحظات الإشراق يوقظ الجانب الميكانيكى لحركاتهم ، هذا البانتوميم الذى لا معنى له ، يوقظ فينا إحساسا بسخف كل ما حولنا .

رجل يتحدث فى كشك تليفون ، ولا نراه إلا من خـلال زجاج الكشك ، ولا نسمع ما يقول ، لكننا نرى حركاته الصماء التى لاتستطيع أن نفهم معناها . ونتساءل لماذا يعيش . هذا هو الجانب اللا إنسانى فى الإنسان ، إننا نستيقظ على حقيقة أن الانسان لا إنسانى . نعثر على سخف وجودنا . هذا « الغثيان » الذى يطلقه عليه كاتب من كتّاب اليوم (١) هو اللامعقول .

وبالمثل عندما ننظر فى المرآة،وفجأة نبدو لأنفسنا كما لو كان الشخص الذى نراه أجنبياً عنا . وننظر بعض الأحيان إلى صورة من الصور ، صورة لنا ، ونرى الشخص الذى يفجئنا فيها كما لو كنا نراه لأول مرة . هذا هو اللامعقول كذلك .

وأصل أخيرا إلى الموت ، وإلى موقفنا من الموت . إننا قلنا كل شىء عن الموت . كل كلام عنه قد استنفد،ولامعنى لأن نكون عاطفيين . لكننا لن ندهش إذا اكتشفنا يوما أن كل منا قد عاش وكأنه لا « يعلم » بالموت . ذلك لأن حقيقة الموت أننا لا نملك تجربة من التجارب عنه . كل ما نجربه هو مانعيشه وما نعيه . وعندما يموت الآخرون نرى موتهم . إننا نتحدث عن تجربة الآخرين بالموت ، لكن تجربة الآخرين ليست تجربتنا . وتجربة الآخرين لاتعطينا خبرات تجربتنا . وفارق بين أن أجرب

---

(١) چان پول سارتر .

وأن أرى . إن ماأراه وهماً وهو لايقنعنى . وفزعى من الموت هو فزع من الناحية الحسابية لحادثة الموت. لو كان الزمن يخيفنى، فذلك لأن الزمن يقربنى من الموت، حتى يأتى الموت أخيراً . وكل كلام عن الروح سوف يقنعنى عكسياً ، لأنى عند ما أموت تتركنى الروح وتختفى ولن تترك أثراً فى جسدى . هذا الجانب الأولى المحدد من تجربة الموت هو الذى يعطينى الاحساس باللامعقول ، بلا جدوية الحياة . وعندئذ لايبرر لى الموت أو الحياة أى قانون أخلاقى ، أو أى مبرر منطقى قد يقوم سابقاً على تجربة التفكير فى الموت ، موتى أنا لا موت الآخرين .

ولأنبه إلى أن ما أقوله الآن قد قيل من قبل مراراً ومراراً، ودورى هنا هو التذكير السريع ، فكل ما أقوله موجود فى الآداب وكل الفلسفات، ولغة الحياة اليومية حافلة به ، وهو شىء لم أخترعه ، ولكنى يجب أن أذكره هنا حتى نستعد للقاء السؤال الذى يجب أن نلقاه ، وأنا هنا وأكرر ذلك ، لست معنيا بالاكتشافات اللامعقولة بقدر ما تهمنى نتائج هـذه الاكتشافات ، فإذا اتفقنا على ما قلت يتبقى أن نعرف ، إلى أى مدى يمكن أن نسير حتى لا يفلت منا شىء ؟ هل علينا أن نموت بإرادتنا ، أو أن نأمل بالرغم من كل شىء ؟ لكن قبل ذلك ينبغى أن نمر مروراً سريعاً حول العقل .

* * *

إن الخطوة الأولى للعقل هى الخطوة التى يخطوها للتمييز بين ماهو حقيقى وبين ماهو زائف . ومع ذلك فإن الفكر بمجرد أن يفكر فى نفسه فإن أول مايكتشفه هو التناقض ، وهنا يبدو أن من غير المجدى أن يحاول الانسان أن يكون مقنعاً ، وقد حاول ذلك أرسطو أكثر من أى إنسان آخر عبر التاريخ . لقد قال أرسطو : « والنتيجة الساخرة لهـذه الآراء هى أنها تدمر نفسها بنفسها . لأنها بتأكيدها بأن كل شىء حقيقى

تؤكد كذلك الرأى المضاد بأن ما هو باطل حقيقى ، وإذن يكون فرضنا الأول فاسد . فإذا قال أحد الناس بأن كل شىء فاســد فقوله الجازم هذا هو نفسه فاسد كذلك طبقاً لكلامه وإذا قلنا إن الجزم الذى يعارضنا هو وحده الفاسد ، أو أن رأينا هو وحده الذى لا يسرى عليه البطلان ، فنحن مضطرون أيضاً إلى الانزلاق إلى عدد لا نهائى من الأحكام الصادقة أو الجائرة ، لأن من يطلق حكما صادقا يسوقه وهو مؤمن فى نفس الوقت بأنه يطلق حكما صادقا وهكذا بلا نهاية » .

وهذه الدائرة المغلقة ليست سوى الدائرة الأولى التى ينزلق إليها العقل الذى يدرس ذاته . وبساطة هذه المتناقضات تجعلها غير قابلة للتبسيط أكثر من ذلك . ومهما كان اللعب بالألفاظ ، وبهلوانية المنطق الذى نستخدمه ، فالفهم هو عملية توحيد كل شىء . وأعمق رغبة يمارسها العقل ، حتى فى أعقد عملياته ، توازى مشاعر الإنسان اللاواعية فى وجه الـكون : إنها إصرار على الألفة وشهوة للوضوح .

وإذا أراد الانسان أن يفهم العـالم فمعنى ذلك أنه بمحاولته تبسيط العالم سيجعله إنسانيا أو مفهوما من الانسان ، بمعنى أنه سيدخل العالم فيه ، سيترك عليه خاتمه . وليس عالم القط هو عالم النملة . وليس هذا الكلام ، « كل الفـكر هو فـكر له شكل إنسانى » له معنى آخر سوى ما يتضمنه ، وبالمثل العقل الذى يحاول أن يفهم الواقع ، فهو يستطيع أن يعبر عن نفسه وقد رضى بأن يحيل الواقع إلى مصطلحات الفـكر ، فإذا تحقق الانسان من أن الـكون مثله فى وسعه أن يحب وأن يتعذب فإنه سيرضى ويتوافق مع الـكون .

وإذا اكتشف الفـكر فى مرايا الظواهر الخادعة علاقات أبدية فى وسعه أن يلخصها ، وأن تلخص هى نفسها كذلك فى مبـدأ وحيد ، فإنه سيرى فى هذه العلاقات بهجة فـكرية لن تكون إلى جوارها

أسطورة السمدين سوى تقليد شائه . وهذا السعى المجنون خلف الوحدة والرغبة الجامحة المطلق ، تصور جوهر الدراما الانسانية .

لكن ليس معنى وجود هذا الجنون أنه لا بد من إشباعه ، لأننا لو عبرنا الهوة التى تفصل بين الرغبة وبين إشباعها ، فإننا نؤكد مع « بارمنيدس » واقعية « الواحد » (مهما كان) ، ونتردى فى التناقض السخيف الذى يتردى فيه عقل يؤكد وجود وحدة كلية ، ويثبت بتأكيده هذا قلة مبالاته بما يؤكد، واختلاف ماحاول هو نفسه أن يثبت أنه متوحد. وهذه الدائرة المغلقة الأخرى تكفى لانسحاق آمالنا .

هذه كلها تأكيدات لا تخدم قضيتنا وإنما هى تتضمن كلاما سبق الإتيان عليه . وسأكرر هنا أنها تأكيدات لا تهمنا فى ذاتها لكن فيما تستتبعه من نتائج . ومن أمثال هذا الكلام القول الذى يقول بأن الانسان فان . وإننا لنعدد الأسماء التى استخلصت نتائج متطرفة من هذا القول . ولا بد لنا أن نذكر هنا باستمرار الاختلاف بين ما نحسب أننا نعرفه وبين ما نعرفه فعلا ، بين العملية التى نحياها وبين الجهل الذى يمايشنا بأفكار لو وضمناها تحت الاختبار لقلبت حياتنا . فإذا أدركنا هـــذا التناقض الذى يتسم به العقل فإننا سندرك كذلك إدراكا تاما البعد الذى يفصل بيننا وبين مخلوقاتنا .

وما دام العقل يعيش صامتا فى عالم آماله غير المتحركة فإن كل شىء يصير مدار تفكيره ، ويترتب فى وحدة جنونه . لكن العقل لو خطى أول خطوة له فسرعان ما يتكسر هذا العالم وينهزم : وحينئذ يصادف الفهم عدداً لا نهائيا من النتف الفكرية التى كان يحسبها العقل حقائق لا تنقض ، ونيأس من إعادة بناء السطح المألوف الهادىء الذى قد يعطينا السلام القلبى بعد هذا المدد الكبير من القرون التى أجهدفيها المفكرون وعينا بهذه الحقيقة التى تتسم بها معرفتنا .

وييأس الناس اليوم من المعرفة المؤكدة أو من وجود أية معرفة جازمة ، فيما عدا العقليون المحترفون . ولو كتب التاريخ الفكرى للبشرية على معناه الذى لا معنى غيره فلن يكون هـذا التاريخ سوى تاريخ عجز البشرية وما داخلها من أحزان متلاحقة .

عمن ، وعماذا أستطيع حقا أن أقول : « أنا أعرف هـذا ! » إن هذا القلب الذى بداخلى أستطيع أن أحس به . وإنى لأجزم بأنه يعيش . هذه هى كل معرفتى ، وهى نهاية معرفتى . أما البـاقى فهو بناء . لأنى لو حاولت أن أمسك بهذه الذات التى أحس بها إحساساً مؤكدا ، لوحاولت أن أعرّفها وألخصها ، فإنى لن أجدها سوى ماء ينزلق من بين أصابعى . وأستطيع أن أرسم صورة تقريبية لكل الجوانب التى يمكن أن تتخذها ، ولكل الأشـكال التى نسبت إليها ، لتربيتها ، أصلها ، لحميتها ، أو للحظات صمتها ، لنبالتها أو لحقارتها .

لـكن الجوانب التى أراها بها لا يمكن أن تنضاف إلى بعضها ، فقلبى ، هـذا القلب الذى هو لى ، سيظل أبدا شيئاً لا يمكن أن أحدد صفاته . وبين اليقين الذى لدىّ عن وجودى، وبين المحتوى الذى أحاول أن أعطيه لهذا الوثوق ، لن تمتلأ الهوة أبداً ، وسأظل دوما غريبا بالنسبة لنفسى ، فهناك حقائق وليس حقيقة واحدة فى علم النفس كما فى المنطق .

وقول سقراط « إعرف نفسك » له قيمة توازى قيمة ما يقول به أصحاب الاعترافات عندنا عندما يقولون « كونوا فضلاء » . فقولهم يكشف عن غثيان كامن كما يكشف عن جهل يواكبه ، وهذا القول الذى يقولون به هو بمثابة التمرينات ، لـكنها تمرينات عقيمة على موضوعات كبرى . وهو قول مشروع ومشروعيته تتأتى فقط من كونه قول تقريبى .

وهنا توجد أشجار ، وأنا أعرف أسطاحها . ويوجد ماء أعرف مذاقه ، وهذه الروائح التى للعشب ، والنجوم التى تلمع فى الليل ، هـذه

الأماسى اليقينية التى يستريح فيها القلب — كيف ألغى هذا العالم الذى أحس بقوته وسلطانه ؟ مع ذلك فكل معرفة الأرض لن توفر له أى دليل على أن هذا العالم هو عالمى . إنك تصفه لى ، وتعلمنى أن أصنفه ، وتمدد له قوانينه ، وفى تعطشى للمعرفة اعترف بأنها قوانين صائبة . وتفصله عن آليته فيزيد أملى . وأخيراً تعلمنى أن هـذا الـكون العجيب ذا الألوان المتعددة يمكن إحالته إلى الذرة ، وأن الذرة يمكن إحالتها إلى الإلـكترون . كل هذا حسن ، وأنتظر لتكمل . لـكنك تقول لى عن نظام فلكى خفى تنجذب فيه الإلـكترونات حول نواة . إنك تفسر لى هذا العالم بأن ترسم لى صورة عنه . وعندئذ يتضح لى أنك قد استحلت إلى شاعر : ولن يزيد إدراكى مع ذلك ، فهل أثور ؟ هل لدى الوقت لأثور ؟ لقد غيرت النظريات ، حتى أن العلم الذى كان مفروضا فية أن يدرس لى كل شىء قد صار هو نفسه افتراضياً . وصار الوضوح مجازا ، وتمكن عدم اليقين من العمل الفنى . فما هى حاجتى إلى مثل هـذه المجهودات الـكثيرة ؟ إن الخطوط الرقيقة التى تتسم بها هذه التلال ، ولمسة يد المساء لهذا القلب المضطرب ليعلمانى أكثر . لقد عدت إلى بدايتى . وعندئذ أدرك أننى لو كان العـلم يتيح لى أن أمسك بالظواهر وأحصرها إلا أن ذلك لن ييسر لى أن فهم العالم . ولو أمسكت بالعالم خطا خطا بإصبعى فلن تزيد معرفتى به . ومع ذلك فأنت تخيرنى بين أن تصف لى العـــالم وصفا دقيقا مؤكدا لا يعلمنى شيئاً ، وبين أن تقدم لى افتراضات تدعى بأنها تعلمنى رغم أنها لا تعلمنى شيئاً فعلا .

فما هى هـذه الحالة التى لن أستطيع فيها أن أحظى بالسلام إلا لو رفضت المعرفة ورفضت الحياة ؟

إننى غريب بالنسبة لنفسى ، وغريب بالنسبة للعالم ، وليس لى من سلاح سوى الفـكر الذى ينفى نفسه بمجرد أن يثبت نفسه . فأى حالة

هذه التى تتحول فيها الرغبة إلى الغزو ، والمعرفة إلى طاقة لا تتعدى حدود الحوائط التى تصطدم بها ، والتى تحاول جاهدة التغلب عليها ؟

إن الإرادة هنا ليست سوى إثارة المتناقضات . إنك عندما تريد سوف تقيم متناقضات تسمم السلام وتعكره بقلة التفكير وثلامة الحس والتخلى عن كل شىء .

ومن ثم فإن الذكاء يقول لى بطريقته هو الآخر بأن العالم لا معقول وقد يدعى العقل بأن كل شىء واضح ، ويصير على عماه ما دمت متشوقا من أول الأمر إلى الدليل الذى حكمت عليه من البدء بأنه صحيح . لكن رغم كل المهاترات التى قيلت طوال كل هذا الزمن وما ادعى به فى بلاغة بعض المفكرين فأنا أعلم بأن هذا العالم عالم زائف . ولن أدرك السعادة حتى لو لم أعرف ، وإن من يتأمل ما فى العالم من عقلانية تريد أن تضمه كله فى وحدة عالمية ؛ وحدة قد تكون عملية أو أخلاقية ؛ وما فيه من حتمية ، وما يقولون به من مقولات هدفها تفسير كل شىء ؛ من يتأمل كل ذلك ليضحك .

كل هذا لا شأن له بالعقل . إنه يخفى حقيقة العالم وحقيقة مصير الإنسان . هذا المصير الذى يحاول مجموعة من العقليين الإحاطة به وخنقه حتى القضاء عليه . لكن الإنسان يحاول أن يستعيد إحساسه بلامعقولية الحياة إحساساً واضحا سيالا .

ولقد قلت بأن العالم لا معقول ، لكنى كنت شديد التسرع . إن هذا العالم فى ذاته ليس معقولا . هذا هو كل ما أستطيع أن أقوله عنه . لكن اللامعقول هو مواجهة اللاعقلى ، وهو الشبق العارم إلى الوضوح الذى يتردد نداؤه فى القلب البشرى . ويعتمد اللامعقول على الانسان مثل اعتماده على العالم . وهو الذى يربط بين الانسان وبين العالم ؛ يربطهما إلى بعضهما البعض مثلما تربط الكراهية بين اثنين .

وهذا هو كل ما أستطيع أن أقوله بوضوح عن هذا العالم الذى حرت فيه والذى أعيشه .

ولنتوقف هنا ، فإذا كنت مصرا على أن اللامعقولية التى تحكم علاقتى بالحياة هى لا معقولية صحيحة ، وإذا كنت سأصطبغ كلية بصبغة هذا الاحساس الذى يتملكنى أمام مشاهد العالم ؛ إذا كنت سأدع نفسى لهذه السيولة التى أترك نفسى لها وأنا أدرس العلم ، فعلىّ أن أضحى بكل شىء لقاء هذه اليقينيات ؛ وعلىّ أن أتأكد تماما من كل شىء حتى أظل متمسكا بها ؛ ثم علىّ قبل كل شىء أن أعدل من سلوكى بالنسبة لها، وأداوم على مراعاة متطلباتها . وأقصد باليقينيات هنا مايفرضه الاحترام علينا من مستلزمات . لكن قبل ذلك كله ، أريد أن أعرف : هل فى وسع الفكر أن يحيا فى هذه الصحراوات ؟

* * *

أعرف أولا أن الفكر قد دخل هذه الصحراوات فعلا ؛ وهناك وجد خبزه ، وهناك أدرك أنه كان يتغذى على الأوهام . وأرضى هذا الفكر بعض الحاجات الانسانية .

لكننا من الوهلة التى ندرك فيها لا معقولية الحياة ، فإن هذه اللامعقولية تصبح حماسا من أكثر الحماسات اشتعالا .

لكننا أمام هذا السؤال نقف حيارى : هل يستطيع الانسان أن يعيش بحماساته ، أو لا يستطيع ؟ هل يستطيع الانسان أن يقبل ماتفرضه الحماسات من قوانين ، أم لا يستطيع ؟ إنها حماسات تحرق القلب الذى تسعده . لكنا لن نسأل أنفسنا هذا السؤال الآن ، لأنه سؤال يتوسط هذه التجربة . وسيحين وقت طرحه والعودة إليه ، ولنلتفت الآن بهذه الأفكار وهذه الأحاسيس التى تولد فى الصحراء ، فهى أفكار وأحاسيس تكفينا حالياً ويعرفها كل الناس اليوم . وكثيرا ما وجد من الناس من

يدافع عما ينافى العقل ، ولم يحدث أن وجدت تقاليد فكرية تحط من الفكر نفسه ، وليس من المناسب أن نعيد تكرار أوجه النقد التى طعن بها المذهب العقلى ، ومع ذلك فعصرنا يتسم بأنه عصر عودة ميلاد الأنظمة التى تتناقض مع بعضها البعض ، ووجود اتجاهين يصوران وجـــدان الانسان الممزق بين سعيه إلى الوحدة وبين رؤياه الواضحة للحوائط التى تحيط به وتسجنه بينها .

لـكن لم يحدث أبدا أن كان الهجوم على العقل يمثل هذه الحدة التى له اليوم . ومن أيام زردشت عندما انفجر صائحا : « كان العقل بالصدفة أنبل مافى العالم ، ولقد أسقطه على كل شىء عندما قلت بأنه لا إرادة أبدية فوق إرادته .

ومن أيام المرض الذى أصاب كيركجورد وأدى به إلى الموت، « هذا المرض الذى يسير بى إلى الموت ولا شىء بعده » ، من هذه الأيام تتابعت عناصر الفكر اللامعقول عنصرا بعد عنصر ، وكلها عناصر تحمل الكثير من المعانى ، وتحرق . أم أنها عناصر الفكر المنافى للعقل ، ولـكنه الفكر الدينى ، من يسبرز إلى هيدجر ، ومن كيركجورد إلى شستوف ، ومن الظاهرانيين إلى شيلر ، وكلهم أسرة من العقليين على المستويين المنطقى والأخلاقى ، يربطهم بعضهم ببعض جنونهم الغثيان ، لـكنهم يتعارضون مع بعضهم البعض بمناهجهم أو بأهدافهم. وكلهم قد ساروا على الدرب ، يعبرون طريق العقل الملـكى ، ويستعيدون المسالك المباشرة التى كانت للحقيقة .

وأنا هنا افترض أن هذه الأفكار يعرفها الناس وعاشوها . ومهما كان طموحهم أو ما أملوه ، فكلهم بدأ من هذا العالم الذى لا يوصف ، العالم الذى تتحكم فيه المتناقضات والألم والعجز والصراع . وليس بينهم من صفة مشتركة إلا هذه العناصر الفكرية التى ذكرناها . ولم يكن يعنيهم إلا النتائج التى حرصوا على استخلاصها من اكتشافاتهم ، والتى تهمنا

بالقدر الذى نحرص على مناقشتها . لكننا لن نناقش الآن إلا اكتشافاتهم نفسها وتجاربهم الذاتية ، ولن يهمنا إلا ما اتفقوا عليه فيما بينهم ، وإذا احتجنا إلى مناقشة فلسفاتهم فسنحاول أن نشير إلى البيئة التى قامت فيها هذه الفلسفات .

ويناقش هيدجر موقف الانسان مناقشة فيها برود ، ويخلص من مناقشته إلى أن وجوده وجود لا واقع فيه إلا « القلق » . ويتحول هذا القلق لدى الانسان التائه فى زحمة العالم وتلاهيه إلى خوف قصير عابر . لكن هذا الخوف لو وعى ذاته لصار كبدا angoise ، وهو المناخ الدائم الذى يسكنه إنسان اللامعقول « الذى يتركز فيه الوجود » .

وهذا المدرس الذى كان يعلم الفلسفة ، يكتب دون وجل ، وبأشد اللغات تجويداً فى العالم ، أن « الوجود البشرى محدود ومتناه ، وأن هذه الصفة أكثر أصالة من الانسان نفسه ». ويمتد اهتمامه بكانت Kant لمجرد إدراك الصفة المحدودة لمفهوم «كانت» عن «العقل الخالص». الأمر الذى يؤدى به فى نهاية تحليله إلى القول بأن «العالم لم يعد عنده مايقدمه للانسان الذى قد امتلأ كيانه بالكبد» . ويبدو أن هذا القلق الذى يحسه هيدجر هو قلق أهم بكثير من كل المقولات الموجودة فى العالم ، لدرجة أنه لم يكن يفكر ولا يتحدث إلا عنه ، فهو يعدد أوجهه : إنه الملل عندما يجاهد الانسان العادى فى كبته وإسكاته ، والفزع عند ما يتأمل العقل الموت .

ولا يفرق هيدجر كذلك بين الوعى وبين اللامعقول ، فالوعى بالموت هو نداء القلق ، « ومن ثم يكشف الوجود عن نفسه من خلال الوعى ». إن الوعى هو صوت الكبد ، وهو دعوة الوجود التى تستحثه إلى تنكب طريق الضياع الذى يظل فيه مجهولا مطويا . وعند هيدجر لا يجب أن ينام الانسان ، بل عليه أن يظل متيقظا حتى تمام النهاية . عليه أن يقف فى قلب هذا العالم اللامعقول ، وعليه أن يشير مبينا منبها

الناس إلى عرضيته ؛ ثم عليه أن ينقب عن الطريق الذى يجب أن يسلكه وسط هذه الخرائب .

وييأس يسبرز من إمكان العثور على أى مذهب أنطولوجى ، لأن يسبرز يدعى أننا قد فقدنا « السذاجة » ، وهو يعرف أننا لا يمكن أن نتجاوز لعبة المظاهر التى توردنا موارد الهلاك . ويعرف أن نهاية العقل فى الفشل ، ويحوم حول مخاطر الروح التى كشف لنا عنها التاريخ ، ويفضح دون رحمة وجه النقص فى كل منها ، ثم الوهم الذى أنقذ كل شىء والمواعظ التى ما أخفت شيئاً ، محاولا اكتشاف « خيط أيادن » الذى يؤدى بنا إلى اكتشاف الأسرار الالهية ، وكل ذلك فى عالم لا تتأكد فيه المعرفة وتستحيل على اليقين أو يبدو العدم كما لو كان هو الواقع الوحيد ، واليأس الذى لا أمل فى شفائه كما لو كان هو الطريق الوحيد .

ولا يمل شستوف عن ترديد نفس هذا الكلام خلال كتابه الطويل الرائع . وهو يدلل فيه على أن المذهب المادى فى أكثر أشكاله تماسكا لابد أن يصطدم دائما بجانب يتأبى على العقل البشرى . ولا تفوت شستوف أية وقائع أو متناقضات تثير السخرية وتقلل من شأن العقل . شىء واحد فقط يثيره ، وهذا الشىء هو الاستثناء،سواء فى دنيا القلب أودنيا العقل. ويتناول شستوف ثورة الانسان من خلال تجارب دستويفسكى التى يدخل فيها أبطاله القدريين ، والمخاطر العقلية المثيرة التى ينفذ إليها عقل نيتشه ، واللعنات التى يستنزلها هاملت على أعدائه ، أو الأرستوقراطية المرة المذاق التى يصورها إبسن .

ويتابع شستوف ثورة الانسان خلال كل ذلك ، ويلقى عليها أضواءه ، حتى لتبدو ضخمة عملاقة وهى تواجه الشر أو النقص الذى لا علاج له فى الوجود . وهو يرفض للعقل كل فروضه المنطقية ، ثم يسير وقد اتخذ لنفسه بعض القرارات ، متقدما وسط تلك الصحراء التى لا لون لها

والتى تحولت فيها كل أوجه اليقين إلى مجرد أحجار .

وربما كان كيركجورد من دون كل هؤلاء الفلاسفة والمفكرين هو الوحيد الذى يكتشف اللامعقول فى الحياة ولو فى جزء من وجوده ، وهو الوحيد الذى عاش هذا اللامعقول . وإن الانسان الذى يكتب : « من الصمت ما هو عنيد ، وليس أعند أنواع الصمت هو الصمت الذى يلجم اللسان ، لكن الصمت الذى يتكلم ، والذى يعرف معرفة مؤكدة ، من البداية ، أن الحقيقة المطلقة شىء لا وجود له . وهو الصمت الذى يستطيع أن يحيـــل الوجود غير الممكن فى ذاته إلى وجود يرضى صاحبه .

ولقد كان كيركجورد دوانچواناً ، لكن بطولته كانت بطولة فى عالم الفهم والادراك ، وهو بوصفه دونچوانا ضاعف من المتناقضات والأسماء المستعارة ، وكتب « أحاديث ومواعظ » فى نفس الوقت الذى كتب فيه كتيبه الروحانى الساخر « يوميات غاوى » . ويرفض كيركجورد كل الأخلاق والمبادىء المتفق عليها وكل ما اصطلح عليه الناس .

ويحس كيركجورد بالشوكة المغروسة فى قلبه ،تؤلمه ، لكنه لايحاول أن يقلل من ألمها ، بل هو على العكس يحاول أن يوقظها . وفى فرحة اليأس التى يعانيها المصلوب والتى يسعد فيها بصلبه ، يبنى جزءاً جزءاً — الوضوح والرفض ووهم الإيمان — وكلها مقولات لايؤمن بها ولايفكر فيها إلا رجل قد شغل بها وانصرف إليها . وكان وجه كيركجورد وجها رقيقاً ومع ذلك كانت السخرية تتضح فيه . ورقص كيركجورد ، ودار حول نفسه،ثم صرخ من قلبه،صرخة ورقصاً هما جوهر اللامعقول ، وهو يتصارع مع واقع قد تجاوز إدراكه . وتبدأ المخاطرة الروحية التى تقود كيركجورد إلى إتيان الفضائح التى أحبها وسعى إليها فى تيه تجربة قد

جردت من كل المزوقات ، وقدمت على أصلها المضطرب غير المتجانس .

ويبحث هسرل ومجموعة فلاسفة الظاهراتيين على مستوى مختلف تمام الاختلاف ، هو مستوى المنهج ، فى العالم وظواهره المختلفة ، وينكرون أن تكون للعقل قدرة متجاوزة ، ويثرون العالم الروحى بما يقدمون من بحوث ، فطلع الوردة ، والحجر ، أو اليد الإنسانية ، تصير كلها فى أهمية الحب والرغبة وقوانين الجاذبية . ولا يعود التفكير مجرد محاولة توحيد وتقنين المبادىء ، لكنه يصير عملية التعلم : أن نحاول أن نرى، وأن نولى الأمور انتباهنا، ونركز وعينا ، ونقلب الفكر فى كل فكرة وفى كل صورة مثلما كان يفعل بروست .

وكانت طريقة هسرل الظاهراتية أكثر إيجابية من طريقة كيركجورد أو طريقة شستوف ، على الأقل فى أول الأمر ، إلا أنها مع ذلك تنفى المنهج الكلاسيكى للعقل ، وتخيب الأمل ، وتفتح البـاب على مصراعيه للوجدان وللقلب لينفذا إلى عالم الظواهر ، هـذا العالم الثرى الذى يتجاوز الإنسانية بثرائه .

وتؤدى كل هذه الطرق إلى الاعتراف بكل العلوم أو إنكارها جميعا ، تماما كما لو كنا نقول بأن عالم المعانى أهم من عالم الغايات ، وكل هذا هو « موقف مهىء للادراك » وليس مجرد حكم يصدرونه على الوجود . ولأكرر من جديد : أن هذا الموقف الذى عرضوه كان هكذا فى البداية فقط على الأقل .

كيف يمكن أن نحدد الإحساس بالعلاقة التى تربط هذه العقول من أساسها ، وكيف يمكن أن لا نرى أنها كلهـا تقف حول لحظة ما ، مريرة وذات إمكانيات ، هى لحظة لم يعد ثمة مكان للأمل فيها ؟ إننى أود أن يكون كل شىء واضحا ، لكن العقل يعلن عن عجزه عندما يسمع هذه الصرخة الصادرة عن القلب . وعندئذ لا يملك

العقل إزاء هذا الإصرار إلا أن يبحث ، لكنه لا يجد شيئاً إلا التناقضات لكنى مع ذلك أفشل عن أن أفهم هذا اللاشىء . والعالم مع ذلك ملىء بهذه اللامعقولات . والعالم نفسه ، بمعناه الوحيد الذى لا أفهمه ، إنما هو لا معقول متسع الأرجاء . ولو استطاع الإنسان أن يقول مرة « هـذا واضح » لأمكن إنقاذ كل شىء . لكن الناس تتصارع مع بعضها البعض حول الإعلان عن عـدم وضوح أى شىء ، ولا تفصح عن الاضطراب الذى يسود العالم ، ولا تبين عن الحقيقة الوحيدة التى يملكها الإنسان ، وهى أنه ليس له إلا الوضوح ، ومعرفته الأكيدة بالحوائط المحيطة به .

وكل هذه التجارب تتفق وتؤكد بعضها البعض ، وعندما يصل العقل إلى خطوط حدوده ، فإن عليه أن يصدر حكما ويختار من بين نتائجه . وهنا عليه أن يواجه الانتحار ويتخذ بشأنه قراراً . لكنى لا أريد أن أبحث فى الانتحار أولا وإنما على أن أعكس الآية وأبدأ من الفكرة نفسها ثم انتهى إلى النظر فى الأفعال اليومية ، فالتجارب التى سنذكرها هنا تجارب ولدت فى الصحراء التى لا يجب أن نهملها ، وعلينا أن ننظر فى هـذه التجارب ، أو على الأقل نعرف كيف سارت وماذا سلكت من دروب .

وحينئذ نقف وجها لوجه أمام اللامعقول ، ونحس داخلنا بحنيننا للسعادة والعيش المنظم . ويتولد اللامعقول من هذه المواجهة التى تتم بين الحاجة البشرية وبين الصمت اللامعقول الذى يغلف العالم .

هذه حقيقة لا يجب أن ننساها ، وعلينا نلتصق بها لأن على نتيجتها تتوقف حياتنا كلها . إن لها ثلاث سمات : اللامعقول ، والغثيان البشرى والعبث . هذه السمات الثلاث هى ما يصف هذه الدراما . وهى سمات لابد أن يكملها كل ما يمكن أن تحويه التجربة من منطق .

لذلك فإن الإحساس باللامعقول ليس هو نفسه فكرة اللامعقول ، إنما الاحساس باللامعقول هو أساس فكرة اللامعقول . ولا تحد الفكرة الإحساس ، إلا عندما يصدر الإحساس حكما من الأحكام على العالم ، ففى هـذه اللحظة القصيرة يتحدد الإحساس داخل الفكرة . وقد يتجاوز الإحساس الفكرة ، فالاحساس حياة ، أو بمعنى آخر فإن الاحساس إن لم يمت فهو ينبض بالحياة ، وإذا نبض بالحياة فهو ليس ميتا . وهذا هو ما نراه فى اللامعقول فى كل الأفكار التى جمعناها سويا .

وأعود فأؤكد أن ما يهمنى ليس هو الكلمات أو العقول الذى يستدعى نقدها إيجاد شكل آخر لها أو نقدها فى مجال آخر خلاف هذا المجال، وإنما مايهمنى هوا كتشاف العناصر المشتركة التى تتواجد فى نتائجها. وربما لم تكن العقول مختلفة فى يوم من الأيام مثلما هى مختلفة اليوم ، ومع ذلك فنحن نتعرف على مافيها جميعامن شواهد روحية كامنة فيها ،وهو نفس الشىء مع كل المفكرين الغربيين الذين ذكرناهم آنفا،فهم جميعاً لهم اهتماماتهم المشتركة ، وهى اهتمامات قد تضطرهم تحت قسوة سمائها إلى الانصراف عن الحياة بالموت أو البقاء فيها رغم ذلك . والمهم أن نتعرف إلى الكيفية التى يموت بها الناس فى الحالة الأولى ، والسبب الذى من أجله يستمرون فى الحياة فى الحالة الثانية . وبهذه الطريقة سأعالج مشكلة الانتحار ، وما يمكن أن يهمنا فى النتائج التى تبرزها الفلسفة الوجودية .

لكنى قبل ذلك أود أن أشرد قليلا عن الطريق المباشر ، فلقد حاولت حتى الآن أن أصف اللامعقول من الخارج ، وقد يتساءل البعض عن مدى الوضوح الذى شرحت به تلك الفكرة ، وقد يحاول بالتحليل المباشر أن يكتشف معناه أولا ثم النتائج المترتبة عليه بعد ذلك .

ولو أنى اتهمت بريئاً بارتكاب إحدى الجرائم البشعة ، أو ألصقت بشخص فاضل تهمة إفساده لأخته ، لقال لى أيهما أن ما أدعيه لا معقول، ولثار حتى ليبدو مضحكا ، لكن ثورته ستكون ثورة لها أسبابها ، وسيكشف الشخص الفاضل بإجابته عن الهوة القائمة بين الفعل الذى أنسبه إليه وبين ما أعتنقه من مبادئ طوال حياته .

وهو إذ يقول « إن هــذا لا معقول » إنما يعنى : « إن هذا متناقض » . ولو رأينا رجلا متسلحاً بسيف من السيوف ، يهاجم مجموعة من الرجال قد تسلحوا بالمدافع ، فسوف أعد عمله مسلكا لا معقولا ، وهو لا معقول بحكم التناقض الموجود بين قوته الحقيقية وبين ما يهدف إليه . وسنحكم بالمثل على أى قول يتنافى مع ما يفرضه الواقع ، كما سنحكم به على التعارض الذى يقوم بين ما نورده هنا من كلام عن اللامعقول وبين الواقع المنطقى الذى نريد له النهوض .

وفى كل هذه الحالات ، سواء ما كان منها بسيطا أو معقداً ، سوف يتناسب حجم اللامعقول تناسباً مباشراً مع المسافة الواقعه بين طرفى المقارنة التى أوردتها ، فهناك زيجات لا معقولة ، وتحــد لا معقول ، وكراهيات لا معقولة ، وصمت لا معقول ، وحروب لا معقوله ، وأيضاً معاهدات صلح لا معقولة . وينهض اللامعقول فى كل منها من مقارنة شىء بشىء آخر . وإذن يحق لى أن أقول أن الاحساس باللامعقول لا ينشأ من مجرد البحث فى إحدى الوقائع أو فى واقعة بذاتها ، لكنه ينشأ من مقارنة فكرة مجردة بواقعة معينة ، أو مقارنة أحد الأفعال بالعالم الذى يتجاوزها . وإذن يكون اللامعقول فى جوهره مفارقة، لا تكمن فى أى من العناصر المقارن بعضها ببعض ، لكنه يتولد من مقابلة هذه بتلك .

وإذن أستطيع أن أقول إن اللامعقول لا يتواجد فى الانسان (لو كان لهذا المجاز معنى) ، ولا يتواجد كذلك فى العالم ، لكنه يتواجد

لقاءهما معا . إنه الرابطة التى تربطهما ببعضهما . ولو أردت أن التزم الواقع لقلت إنى أعرف ما يريده الانسان وأعرف ما يهيئه له العالم من إمكانيات، وإذن أستطيع أن أقول كذلك أنى أعرف ما يربط الاثنين معاً : حاجات الانسان بمعطيات العالم . ولست فى حاجة إلى تحرى الأمر أعمق من ذلك فيكفينى هنا ، كباحث ، يقين واحد أستمد منه ببساطة كل نتائجه .

والنتيجة المباشرة التى أستمدها من هذا اليقين هى الأخرى مسألة منهج ، وعلى هذا يصير عندنا ثالوث ، واكتشافه ليس حدثا ، وهو ثالوث يشبه ثالوث التجربة ، إنه بسيط غاية البساطة ومعقد غاية التعقيد، وأهم سمة يمكن أن يتسم بها هى أنه لا يمكن تجزوته ، فلو أننا جزءنا أحد عناصره لكان فى ذلك تحطيم له ككل ، لأن اللامعقول لا يتواجد خارج العقل البشرى ، وإذن فاللامعقول كأى شىء فى هذه الحياة لا ينتهى إلا بالموت . وكذلك لا يوجد اللامعقول خارج هذا العالم .

وبهذا المفهوم أقيس فكرة اللامعقول ، وأعلن حكمى عليها بأنها فكرة تتناول الجوهر، وهو أولى ما يمكن أن أقول به من حقائق ، وهنا تبرز قاعدة المنهج التى ذكرناها سابقاً ، فلو أنى حكمت على شىء من الأشياء بأنه حقيقة ، فإنى مطالب بالحفاظ عليه . ولو حاولت أن أحل مشكلة من المشاكل فلا يجب أن يكون فى هذا الحل قضاء على أحد مقولات المشكلة . وأنا لا يهمنى إلا حقيقة وحدة هى حقيقة اللامعقول ، وأهم شرط للاستمرار فى بحثى هو شرطى فى استمرار بقاء جوهر الشىء الذى يحطمنى ، واحترامه .

وهذا الجوهر هو ما وصفته تواً بأنه المقابلة أو المواجهة الآنفة الذكر والتى تحوى صراعاً لا ينتهى .

ولو ذهبت بهذا المنطق اللامعقول حتى نهايته لكان علىّ أن أعترف بأن ذلك الصراع يتضمن غياب الأمل غيابا كلياً (وهو غياب لا صلة له

باليأس) ، والرفض المستمر (الذى لايجب أن نخلطه بالتخلى) ، وعدم الرضى بشكل واع (وهو مالا يجب أن يقارن بعدم الراحة الذى مصدره عدم النضج) . وكل شىء يحطم أو يقضى أو هـذه المتطلبات (وأولى هذه الأشياء هو الرضوخ الذى يذهب بالمفارقة ويقضى عليها) هو شىء يتسبب فى دمار اللامعقول ، وفى الحط من شأن أى موقف قد يكون محل مناقشة ؛ وإذن يكون للامعقول معنى فى حالة واحدة فقط ، طالما أنه أمر غير متفق عليه برأى .

* * *

وهناك حقيقة تقول إن الإنسان هو دائماً فريسة حقائقه ، وهو قول تبدو فيه الأخلاقية ، فالإنسان عندما يعترف بحقيقة من الحقائق لا يستطيع بعدها أن يحرر نفسه منها ، وهو يدفع مقابل اعترافه وعجزه عن تحرير نفسه ، ومن يعثر باللامعقول يوماً سيظل أبداً مرتبطاً به ، ومن يتخلى عنه الأمل ويعيش بهذا الوعى سيتوقف عن التفكير فى المستقبل ، وهذا أمر طبيعى ، ومن الطبيعى كذلك أن يحاول الهرب من العالم الذى خلقه لنفسه . وكل ما قلناه إذا كان له معنى فهذا المعنى هو حصيلة هذه المفارقة والتناقض السابقين . لـكن البعض يبدأون بنقد المذهب العقلى ويعترفون باللامعقول ، ومن المفيد أن نتتبع الطريقة التى ينتهون بها إلى ما توصلوا إليه من نتائج .

لأحدد نفسى بالفلسفات الوجودية ، ورأيى فيها أنها جميعاً بلا استثناء تقول بالهرب ، فهم بعد أن يسيروا على أنقاض العقل ويقررون اللامعقول فى حدود العالم الإنسانى ، يقدسون ما تسبب فى انسحاقهم ، ويجدون المبررات ليأملوا فيما كان سبباً فى إفقارهم روحياً . وهذا الأمل الذى يستولدونه غصباً فيهم هو أمل دينى ، وهو أمر يلفت منا النظر .

ولسوف أحلل هنا بضعة نقاط يتمسك بها شستوف وكيركجورد ، وسأزيدها وضوحا بموقف يسبرز منها . إن يسبرز يدرك المتعالى ، وفى إدراكه له يفقد القدرة على تعمق التجربة والوعى بالعالم الذى يغلفه الفشل . فهل يتقدم يسبرز أكثر من ذلك ، أو حتى على الأقل هل يستقى نتائج معينة من ذلك الفشل ؟ أبداً فيسبرز يتوقف عند هذا الحد ولا يضيف جديدا ، فهو لم يجد فى التجربة سوى الاعتراف بعجزه هو وفشله فى استقاء أية مبادىء يمكن أن ترضيه . لـكنه فجأة وبلا مبررات يقول مرة واحدة بالمتعالى ، ويؤكد أنه جوهر التجربة والمعنى فوق الإنسانى للحياة ، وهو يكتب قائلا : ألا يكشف الفشل ، متجاوزا أى تفسير ممكن ، ليس عن غياب المتعالى ولـكن عن وجوده ؟ » وذلك الوجود الذى يفسر فجأة كل شىء وبدون روية ، يعرفه يسبرز على أنه « الوحدة التى يتركب منها العام والخاص » . وهكذا يصير اللامعقول هو الله (بأوسع ما فى الكلمة من معنى) ، ويصير العجز عن الإدراك هو الوجود الذى يضىء كل شىء . وليس هناك مايؤيد هذا الكلام منطقيا حتى ليمكننى أن أقول عنه إنه القفزة ، ومن العجيب أن هذه القفزة رغم أنه يدعو إليها إلا أنه يحيلها إلى تجربة مستحيلة التحقيق . وكلما استحال تحقيقها بالنسبة إليه كلما صار المتعالى واقعاً بالنسبة إليه ، ويتناسب الحماس الذى يتحدث به عن المتعالى تناسباً مباشراً مع الهوة التى تفصل بين قدراته على التفسير ولا معقولية العالم والتجربة ، وهكذا يبدو أن يسبرز كلما حطم تصورات العقل السابقة كلما توصل إلى تفسير العالم تفسيراً جذرياً . وسيجد نبى الفكر المتواضع ، فى نهاية النهاية لتواضعه ، وسيلة ما ، يستولد بها الـكينونة إلى أعمق أعماقها .

ولقد عودنا الفـكر المتصوف على أمثال هذه الحيل ، وكلها مواقف عقلية يقفها العقل ، لكنى هنا لن أهتم بها إلا من حيث أنها تتفق أو

لا تتفق مع الشروط التى اشترطتها أنا نفسى ، والصراع الذى يهمنى هنا .
وهكذا أعود إلى شستوف وإلى كلامه عندما يقول، نقلا عن أحد رواته :
إن الحل الوحيد الحقيقي هو أنه ليس هناك حل وإلا فما حاجتنا إذن إلى الله ؟ إننا نتحول إلى الله لنحقق فيه المستحيل ، أما الممكن فهو ما يتحق على أيدى البشر » . فإذا كانت لشستوف فلسفة فإنها تتلخص فى الجملة السابقة ، لأن شستوف عندما يكتشف اللامعقول الطاحن فى الوجود كله فإنه لا يقول « هذا هو اللامعقول » لـكنه يقول « هذا هو الله :
ويجب أن نعتمد عليه حتى لو لم يتفق وجوده مع أى من المقولات العقلية التى نقول بها » . ويكاد هذا الفيلسوف الروسى يقول عن إلهه بأنه إله حقود كريه لا يمكن فهمه ، ومتناقض مع نفسه ؛ وهو إله كلما اشتد قبح وجهه كلما كانت سلطته أكبر وهيلمانه أوسع ، فعظمته إذن هى فى تناقضه ، ودليله على وجوده هو لا إنسانيته . ولابد للانسان أن يقفز فيه ، وبهذه القفزة يحرر نفسه من الأوهام العقلية ، وهكذا يصير قبول اللامعقول عند شستوف متوازيا مع وجود اللامعقول نفسه ، فالوعى به يساوى قبوله ، وكل جهد شسوف العقلى يتلخص فى الدفع به إلى قمة الوعى كى تنفجر فى نفس الوقت طاقة الأمل الضخمة التى يحتويها . وهذا الموقف الذى يقفه شستوف هو موقف مشروع رغم أنى هنا لا أحفل بمقدار ما يحوى هذا الفكر أو ذاك من عاطفة أو إيمان ، فما زال العمر أمامى قد يطول حتى لأبحث فى هذا البحث ، وأنا أعرف أن الإنسان المؤمن بالمذهب العقلى قد يجد فى موقف شستوف شيئاً مثيراً للضيق ، لـكنى أعرف أيضاً أن شستوف فى موقفه على صواب أكثر ، وعلىّ الآن أن أرى هل ظل شستوف وفياً لما وجده فى اللامعقول ؟

إننا لو اتفقنا على أن اللامعقول يضاد الأمل فإن الفـكر الوجودى عن شستوف يستحيل إلى فرض اللامعقول مقدماً ، ويثبته كى ينفيه بعد

ذلك . وعند ما يعارض شستوف بلا معقوله ، فى مكان آخر ، الأخلاق السائدة والعقل ، فإنه يسميه الحقيقة والخلاص . ومن ثم فإن تعريف شستوف للامعقول يتضمن شرطا يوافق هو نفسه عليه . وهو عندما يقول إن كل قوة فكرة اللامعقول تكمن فى معاداتها لآمالنا الجوهرية فكأنما هو يطلب منا أن لا نصادق على تعريفه لأن اللامعقول هنا يفقد صفته الإنسانية والنسبية ليدخل أبدية لاتفهمها رغم أنها قد ترضينا . وإذا كان هناك عالم لا معقول فعلا فهو لن يكون إلا فى دنيا الإنسان . وفى اللحظة التى تتحول فيها فكرة اللامعقول إلى فكرة ترتبط بالأبدية فإنها تفقد ارتباطها بالإنسان ووضوح قصده وفكره ، فليس اللامعقول شاهداً يمثر عليه فى عالمه لكنه لايوافق عليه ، إنما اللامعقول فى الإنسان وفى مواصلاته بعالمه وبالآخرين . وهذه القفزة التى يقول بها شستوف هى هروب ، وشستوف الذى يحب ترديد جملة هاملت « لقد انقطع حبل الوقت » يكتب بأمل فيه وحشية لا نجدها إلا فى شستوف وحده . ولا يقول هاملت أو شكسبير جملتهما بهذا المعنى ، وإنما يعمى شستوف عن الوضوح اللازم لوعى اللامعقول وينصرف عن المعنى الحقيقى ، ولايجد شستوف أية فائدة للعقل ، لكنه يتجاوز العقل ، ويقول بشىء يفوقه . والعقل عند المؤمن باللامعقول لا فائدة منه ، ولكنه كذلك لا يجد شيئاً يتجاوز العقل أو يفوقه .

ويمكن أن تنير نا هذه القفزة على الأقل ولو إنارة أكثر قليلا بخصوص طبيعة اللامعقول الحقيقية . ونحن نعرف أن اللامعقول يوجد فى المعادلة بطرفيها ، وليس فى أى من الطرفين على حدة . لكن شستوف يؤكد أحد الطرفين تأكيداً جازماً ، وهكذا لا تصير المعادلة معادلة ، لأنه إذا ثقل أحد طرفيها على الآخر لا يصبح معادلا للاخر . إننا نفهم وبنا شبق جارف للفهم والمعرفة ولتحصيل المطلق طالما أننا نستطيع ذلك . وإذن

فلا يمكن أن ننفى العقل نفياً باتاً ، فالعقل له نظامه ، فإذا استخدمناه فى مجاله لكان استخدامنا له صحيحاً . ونحن نستخدم العقل فى التجربة الإنسانية ، وبه نجعل كل شىء يبدو واضحاً ، فإذا فشلنا فى ذلك ، وولد اللامعقول فى هذه اللحظة ، فإنه يولد عند نقطة التقاء ثمة كفاية العقل مع بداية اللامعقول الذى لا يمكن عقليته . فإذا جاء شستوف يثور على قول هيجل بأن « حركة النظام الشمسى تسير وفقاً لنظام لا يتغير ، وأن هذا النظام هو عقلها » أو ينقض منطقية سبينوزا ، فإنه لا يبدو أن يكون مجانباً للصواب ، ومؤكداً لغرور العقل ، وهو أمر يناقض فعله الأول الذى كان به يناقض منطقية هيجل أو سبينوزا . ثم إن هناك فكرة الحدية وفكرة المستوى ، فقوانين الطبيعة قد تكون صائبة إلى حد معين ، وبعده ربما كانت تنقلب على نفسها مولدة اللامعقول ، أو ربما كانت هذه القوانين معقولة طالما كانت على مستوى الوصف ، فإذا حققناها من ناحية الشرح والتفسير وجدناها خاطئة ، وهكذا نجد أن شستوف يضحى بالوضوح وبكل شىء من أجل إثبات اللاعقلانية فى الوجود ؛ ويعلى من قدر أحد طرفى المعادلة فيقضى على المعادلة نفسها . لكن الإنسان الذى يؤمن باللامعقول يصادق على الصراع ولا يحتقر العقل احتقاراً مطلقاً ، وهو فى نفس الوقت يقول بأن هناك ما لا يمكن إدراكه بالعقل فى الوجود ، وبذلك لا ينكر التجربة العقلية ، ويتريث قبل أن يقفز قفزته ، لأنه يعلم أن العجلة لا يمكن أن تعطى ثورته أى أمل .

وما نجده عند ليو شستوف نجده بصورة أكبر عند كيركجورد ، مع فارق واحد هو أن كيركجورد كاتب صعب الإمساك به ؛ فلو تغاضينا عن كتاباته الموقعة بإمضاءات مستعارة ، وألاعيبه وسخرياته ، لوجدنا أنه فى كتبه الأخيرة ، يبرز حقيقة هامة ألا وهى القفزة . إن كيركجورد هو الآخر يقفز قفزته . لقد ملأته المسيحية رعبا فى طفولته ، لذلك فهو

يتحول إليها يناقشها متكئا على الصراع والتناقض . إنه يقول بأن الصراع والتناقض هما المحك الذى يتعرف به الإنسان على مدى تدينه . وما كان يمكن أن يؤدى إلى اليأس من معنى وعمق هذه الحياة ، يصير حقيقة الحياة وإشراقتها .

إن المسيحية فى نظره فضيحة ، لكن كيركجورد يطالب لها بالتضحية الثالثة التى دعى إليها إجناتيوس لويولا ، والتى يسعد بها الإله كثيرا : « التضحية بالفكر » (١) وإننا لنرى أمر هذه القفزة غريبا ، لكننا ما يجب أن ندهش منه أكثر من ذلك ، فكيركجورد يصنع من اللامعقول المقياس الذى يدلل به على العالم الآخر ، مع أنه نتيجة تجربة الحياة فى هذا العالم . ويقول كيركجورد فى ذلك « إن المؤمن ليجد فى فشله انتصاره » .

وليس لى أن أتساءل هنا عن الاتجاه الذى أخذه كيركجورد ، ولكنى أتساءل هل رؤيا اللامعقول وتشخيصه يبرر قيام هذا الاتجاه . إننى أعلم أن هذه الرؤيا لا تبرره ، ولو فحصنا من جديد محتوى اللامعقول لفهمنا أكثر المنهج الذى ألهم كيركجورد هذا الاتجاه . إن كيركجورد لا يتوازن بين لاعقلانية العالم وغثيان اللامعقول ؛ لا يخدم العلاقة التى تكوّن إحساس اللامعقول . وهو متأكد أنه غير قادر على الهرب من اللامعقولية ، ولذلك فهو يريد أن ينقذ نفسه على الأقل من الغثيان الذى يبدو له أجدب لا نتائج له . لكنه لو صدق فى حكمه فهو غير صادق فى نفيه ، لأنه لو استبدل بصرخة التمرد التى كان يجب أن يطلقها تديناً

---

(١) وربما يظن عنى أنى هنا أتناسى القضية الأساسية ، قضية الإيمان . لكنى لست فى مجال مناقشة فلسفة كيركجورد ، أو شستوف ، أو هسرل ، كما سنرى فيما بعد ، فهذا أمر يستوجب مكانا آخر واتجاها عقليا مختلفا . إنما أنا أتناول فكرة منهم ، وأختبر نتائجها لأرى ما إذا كانت تتطابق مع قواعدهم التى وصفوها ، فالأمر هنا أمر مثابرة .

وتعصباً للدين ، بأن أغلق عينيه دون اللامعقول الذى أنار له السبيل حتى الآن ، فإنما يقدس اليقين الوحيد الذى لم يكن له غيره والذى وجده ، ألا وهو اللامعقول . إن الشىء المهم عند كيركجورد هنا إنه يُعالج ، ويتمنى أن يعالج ، وهو ما يعبر عنه طوال كل مذكراته ، ويحاول جاهداً بكل ما أوتى من ذكاء وفهم أن يهرب منه . يهرب من التناقض الذى يقضم ظهر الوضع الانسانى . وهى محاولة يائسة أخرى يمارسها كيركجورد لأنه يرى نفسه أنها لا مجدية .

وهو يعترف بذلك عندما يتحدث عن نفسه قائلا إنه لا الخوف من الله ولا التدين بقادرين على إحلال السلام فى صدره . وهكذا يُسقط صفات اللامعقول على الله فيقول عنه إنه غير عادل ، وغير معقول ، وغير مفهوم ؛ ثم يقضى على مطالب القلب الانسانى بأن يعلى من الذكاء والعقل، لكنه لا يثبت لنا شيئاً ، وهو إذ لا يثبت شيئاً يخيل إليه أنه قد أثبت كل شىء .

وكيركجورد نفسه يقودنا إلى الطريق الذى سار فيه ، ولست أنوى أن أقدم هنا أية مقترحات ، لكنى أتساءل هل يمكن أن نفشل فى التعرف عليه وهو يشوه الروح تشويهاً مقصوداً من أجل أن يوازن بينه ، أى كيركجورد ، وبين التشويه الذى يقبله هو خاصاً بفكرة اللامعقول ؟ إننى قرأت هذه المحاولة فى كتبه ، وهو شىء تمتلأ به مذكراته .

مثلا عند ما يقول : « كان ينقصنى الحيوان الذى هو كذلك من مصير الإنسان . . » ثم عند مايقول « لكن اعطنى جسداً » ، ثم « أواه ! خصوصاً أيام الشباب الأولى ، ما الذى لم أكن مستعداً أن أبذله لكى أكون رجلا ولو لستة أشهر . . . إن ماكان ينقصنى هو الجسد أساساً ، والظروف المادية المواتية للوجود » . ثم يطلق صرخة الأمل مع ذلك فى مكان آخر ،

هذه الصرخة التي وصلتنا عبر القرون والتي ألهمت قلوبنا كثيراً ، ما عدا قلب الانسان الذى يؤمن باللامعقول .

لكن المسيحى لا يعتقد أن الموت نهاية كل شيء ، وهو يعتقد أن الموت به من الأمل أكثر مما بالحياة ، حتى ولو كانت هذه الحياة مشرقة بالصحة والعافية . فالتناقض هنا أن نجد الأمل فى الموت الذى هو نقيضه . لكن أن نؤمن فعلا بهذا الكلام فهو شيء يجاوز حدود طاقتنا البشرية . إنه شيء فوق إنسانيتنا ، ذلك لأنه لا دليل على أن هذا الشيء صحيح . لم يحدث أن أكدت التجربة ذلك ، وكل ما أستطيع أن أقوله هنا هو أن هذا الكلام يزيد على طاقتى . وإذا لم أكن أرفضه فأنا على الأقل لا أجده مصدقا .

إن ما أريده هو : هل أستطيع أن أحيا بما أعرف ؟ هذا هو وحده ما أريده : أن أحيا بما أعرف . ولكن قد يرد علىّ أحد بأن هذا هو الغرور ، وأن واجب العقل أن يضحى بصلفه وينحى قليلا ، لكنى إذا كنت قد عرفت حدود العقل فلن أنفيه ، مادمت قد أدركت طاقاته النسبية . إنما أريد أن أبقى فى الوسط ، لكى أظل مبقياً على إدراكى سليما . وإذا كان هذا هو الغرور فلست أجد سبباً يدعونى إلى التمسك به أكثر من السبب الذى يزودنى به كيركجورد وهو يتحدث عن اليأس ، ويقول عنه إنه ليس واقعاً ولكنه حالة : الحالة التى تتواجد عليها الخطيئة : لأن الخطيئة هى ما يبعدنا عن الله ، واللامعقول ، وهو الحالة الميتافيزيقية للانسان الواعى ، لا يؤدى بنا إلى الله (1) . وربما وضحت هذه الفكرة أكثر لو نطقت بهذه العبارة التى قد تصدم البعض : إن اللامعقول هو الخطيئة بدون الله .

---

(1) لم أقل أنه يعزلنا عن الله وهو ما يعنى كذلك تأكيد بعدنا عن الله .

المسألة فى هذه الحالة من اللامعقول هى مسألة حياة . وأنا أعلم الأساس الذى تقوم عليه . إنه هذا العقل وهذا العالم كلاهما يشد فى الآخر دون أن يستطيع أيهما أن يحتضن الآخر . وأسأل عن قاعدة الحياة التى تحيا عليها هذه الحالة ، والجواب الذى أحصل عليه يتناسى أساسها ، وينفى أحد الأطراف المتنازعة . وأتساءل عما تتضمنه الحالة التى أقول عنها إنها حالتى ، ولا أجد فيما تحويه سوى الغموض والجهل ، ثم أتأكد من أن هذا الجهل يفسر لى كل شىء ، وأن هذا الظلام هو كل ما لدى من ضوء . وإذن فلا مجال إلا بإسقاط كيركجورد ، وليصرخ محذرا : إذا كان الانسان بلا وعى أبدى ؛ وإذا كانت الأشياء فى أعماقها لا يوجد بها إلا قوة مجنونة محركة تنتج كل شىء ، سواء الكبير منها أو الصغير ، داخل عاصفة العواطف المظلمة ، وإذا كان الخوار الذى لا قاع له والذى لا يملأه شىء هو ما يكمن خلف كل الأشياء ، فأى شىء تكون الحياة سوى أنها اليأس ؟ »

إن هذه الصرخة لن توقف الانسان المؤمن باللامعقول . إن كيركجورد يبحث عما يرضيه ، لكن البحث عما يرضى ليس هو البحث عن الحقيقة ، وإذا كان على المرء لكى يهرب من الاجابة على هذا السؤال « ما هى الحياة ؟ » أن يعيش كالحمار ، على ورود الوهم ، فإن المؤمن باللامعقول ليفضل إذن ، بدلا من الاكتفاء بالباطل والوهم ، أن يقول مع كيركجورد فورا : إنها اليأس » . أما وقد بحثنا الآن جوانب القضية فأعتقد أن حرية الاختيار متروكة لكم .

* * *

وإنى لأسمح لنفسى أن أطلق على موقف الوجودية تجاه هذه المسألة أنه انتحار فلسفى . لكن ينبغى أن يتنبه القارىء إلى أنى لا أصدر حكماً ، وإنما أنا أطلق اسما نستطيع به أن نتعرف على حركة آتى الفكر فيها

أن ينفى نفسه ، أن يميل إلى تجاوز نفسه بنفيه لنفسه ، فالنفى هو إله الوجوديين . ولكى أكون أكثر دقة أقول إنهم يصلون إلى إلههم هذا عن طريق نفس العقل الإنسانى (١) . لكن الآلهة تختلف باختلاف الأفراد ، تماماً مثلما تختلف طرق الانتحار . وهناك طرق كثيرة للقفز مادام أن المهم هو أن نقفز ، وكل ألوان النفى التى يحس بعض الناس أنها تخلصهم ، وكل التناقضات النهائية التى تنفى العقبة التى لم يقفز فوقها بعد ، قد تنشأ من إلهام دينى معين ، أو من نظام عقلى ، الاثنان سواء ما داما يطلبان الأبدية ، وما داما لا يريان هدفا مهماً سوى هذا الهدف عند ما يقفزان .

ولأكرر هنا أن ما أناقشه فى هذا البحث لاشأن له بالاتجاه الفكرى الذى يجد له انصاراً كثيرين فى عصر التنوير هذا ، وهو الاتجاه القائم على عقلنة كل شىء ، وتفسير العالم بالعقل ، فإذا كان هذا الاتجاه يقول بإمكان فهم كل شىء فى العالم ، فمن الطبيعى أن يحاول بعد ذلك توضيح كل شىء فيه . هذا شىء طبيعى لكننا هنا لا نقول بهذا الاتجاه ، ذلك بأننا نبدأ من الفلسفة التى تقول بأن لا معنى للعالم ، وأنه غير واضح ، ومن ثم فهو غير مفهوم ، لكنها تنتهى بأن تجد له معنى وعمقاً . وأعمق ما تصل إليه هذه الفلسفة التى تعنينا فى جوهره دينى ، أى أن الدين يشكل خطاً واضحاً فى هذا الذى لم يستطاع فهمه . لكن الشىء الغريب حقاً ، والذى له دلالة بعيدة ، هو أن تعلن هذه الفلسفة أن العالم خلو من المعنى ، ثم تحاول بعد ذلك أن تضفى عليه أسباباً عقلية . ومن المستحيل أن أصل إلى ماأريد أن أصل إليه من نتائج دون أن أعطى فكرة عن هذا الاتجاه الجديد للغثيان .

---

(١) ولأنبه مرة أخرى إلى أننى لا أبحث هنا فى إثبات فكرة الله ، ولكنى أبحث فى المنطق المؤدى إلى إثبات هذه الفكرة .

سأناقش هنا فكرة « القصد » لاغير ، التى قال بها هسرل والظاهراتيون ، وكنت قد أشرت إليها من قبل .

ينفى « هسرل » أساساً المنهج العقلى القديم ، ويقول عن الفكر أنه ليس عملية توحيد أو إظهار المظهر بأنه شىء عادى تحت ستار مبدأ عظيم . إنما الفكر هو إعادة النظر من جديد فى الطريقة التى نرى بها ، وتوجيه وعى الفرد ، وإضفاء صفة التميز على كل صورة من الصور . وبمعنى آخر ، فإن الظاهراتية ترفض أن تفسر العالم ، لكنها تريد أن تكون مجرد وصف للتجربة الواقعية . وهى تؤكد الفكر اللامعقول عند ما يقول : إنه لا توجد حقيقة واحدة ولكن عدة حقائق . وكل شىء له حقيقته ، من نسمة المساء إلى هذه اليد فوق كتفى . والوعى عند مايتنبه لها يوضحها ويضيئها . ولا يشكل الوعى موضوع إدراكه ، لكنه يضع الأشياء فى بؤرة . إن الوعى هو عملية الانتباه . ولو استعرضنا صورة من الصور التى يقول بها « برجسون » لقلنا إن الوعى يشبه مصدر الضوء (البروچيكتور) الذى يتركز فجأة على صورة من الصور. والاختلاف بين الوعى والبروچيكتور هنا ، هو أن البروچيكتور يتركز على أشياء قد تضمنها سيناريو ، لكن الوعى يتركز على ظواهر متتالية وغير متصلة . وكل صورة من الصور تظهر بواسطة هذا المصباح السحرى كشىء متميز بذاته . ويبقى الوعى موضوعات انتباهه فى مدار التجربة ويعزلها بإعجازه، ومن ثم يبقيها بمنأى عن أن نصدر عليها أحكاماً ، وهذا هو « القصد » الذى يميز الوعى ، لكننا يجب أن ندرك أن كلمة « القصد » لا تتضمن أية فكرة من أفكار النهائية ، وإنما يستخدمها هسرل بمعنى «توجيه» ، وقيمتها الوحيدة قيمة طبوغرافية (وصفية مكانية) .

وبهذه الطريقة يبدو مؤكداً للوهلة الأولى أنه لا شىء فى الظاهراتية يناقض الفكر اللامعقول ، فالظاهراتية متواضعة فكريا لأنها تقنع بوصف

ما ترفض أن تفسر ، وهى تسير وفقاً لنظام قصدى من شأنه أن يثرى التجربة ، ويلد العالم من جديد ميلاداً فيه الكثرة والملل ؛ وكل ذلك هو منهج اللامعقول ، أو على الأقل هو ما يبدو منها للوهلة الأولى ويتشابه مع منهج اللامعقول ، لأن طرائق الفكر ، فى حالتنا هذه وفى الحالات الأخرى كذلك ، لها جانبان : الأول سيكولوچى ، والثانى ميتافيزيقى[1]، ومن ثم تكون لها حقيقتان . فإذا كان « القصدى » لا يهدف إلا إلى مجرد تصوير الموقف السيكولوچى ، الذى يسقط غموضاً على الواقع بدلا من أن يفسره ، فإن « القصدى » يكون من الفكر اللامعقول ولا شىء يفصله عنه ، فهو هنا يهدف إلى وصف ما لم يستطع أن يتجاوزه . إنه يصف التجربة ويحاول إدراكها من جميع وجوهها ، وكل ما يجده فيها إنما هو سيكولوچى فى طبيعته . وهى طريقة تشهد بما يمكن أن يثيره الواقع فينا من اهتمام ، وتقيم العالم الغامض أمامنا ، وتجعله واضحاً للعقل . لكننا لو حاولنا بها أن نعدها لدرجة أن تعطينا أساساً عقلياً لصورة الحقيقة ، والجوهر موضوع المعرفة ، فإننا لا نلجأ إلى التجربة ، وهذا أمر غير مفهوم بالنسبة للعقل الذى يقول باللامعقول .

وإذن فنحن نجد أن الاتجاه القصدى يتأرجح بين التواضع وبين اليقين ، ومع ذلك فهذا الفكر الظاهراتى الباهت هو نفسه الذى سيصور المنطق اللامعقول أكثر من سواه من مدارس الفكر الأخرى ، ذلك لأن « هسرل » يتحدث هو الآخر عن « جوهريات زمنية إضافية » يظهرها القصد ، وهو إذ يتحدث هكذا يشبه أفلاطون ، فكل شىء

---

(١) حتى أكثر نظريات المعرفة اكتمالا تتضمن نواح ميتافيزيقية ، وبنسبة كبيرة ، لدرجة أن هذه النواحى لدى الكثرة من المفكرين المعاصرين تكون نفسها نظريات معرفة .

لا يفسره شيء واحد لكن تفسره كل الأشياء ، وهو ما لا أراه مخالفاً لما يقول به أفلاطون ، فهذه الأفكار بالتأكيد ، أو هذه الجوهريات التي يقول بها الوعى عند نهاية كل وصف ، لا يمكن أن نمدها نماذج كاملة ، لكنها بالتأكيد موجودة وجودا مباشرا فى تفاصيل الواقع المحسوس . ولم تعد هناك فكرة واحدة تفسر كل شيء ، وإنما يوجد عدد لا نهائى من الجوهريات يعطى معنى لعدد لا نهائى من الموضوعات . ويتوقف العالم فى هذه الحالة عن الحركة ، لكن توقفه يضيئه ، بأن يستطاع معرفة الأشياء نظراً لتوقفها ، وتستحيل الواقعية الأفلاطونية إلى واقعية حدسية ، لكنها مع ذلك تظل واقعية . ولقد انتهى كيركجورد ، ابتلعه إلهه . وأغرق برميندس الفكر فى الواحد . لكننا نلاحظ أن الفكر هنا قد اندفع إلى أحضان مجردة من تعدد الآلهة . وليس هذا فقط ، وإنما انضافت الخرافات والقصص المختلفة إلى « الجوهريات الزمنية الإضافية » ، وتماونت سلالات حيوان السينتور مع السلالة الأكثر تواضعاً لإنسان المدينة فى عالم الأفكار الجديد .

لكن من يؤمن باللامعقول يرى أن الرأى السيكولوجى الخالص الذى يقول بأن كل وجهات النظر فى العالم سليمة ، هو رأى به بعض الحقيقة وبعض المرارة ، وذلك لأن القول بأن كل شيء صواب كالقول بأن كل شيء يساوى كل شيء . وحينئذ تصيب المؤمن باللامعقول نكسة ميتافيزيقية تقربه أكثر من أفلاطون . لقد قالوا له إن كل صورة يفترض فيها افتراضاً مسبقاً جوهر أصيل ، وعندئذ لا يكون فى هذا العالم المثالى القبلى إلا القواد لاغير من غير جنود ، ونكون قد انتهينا من فكرة التجاوز ، لكننا بلفتة فكرية مفاجئة نلقى إلى العالم بنوع من التعالى الجزئى يعيد إلى الكون أعماقه .

هل ينبغى أن أتراجع خوفاً من أن أكون قد فسرت فكرة عالجها

أصحابها بحرص وعناية بالغين ؟ إننى لأقرأ ما يؤكده هسرل ، وما يبدو تناقضه واحداً رغم كونه منطقياً بدرجة كبيرة . لو قبلنا ما يسبق به هذه الأقوال . اقرأ قوله : « إن ما هو حقيقى لحقيقى إطلاقاً فى ذاته ؛ الحق واحد ، وهو متطابق مع ذاته ، مهما اختلفت المخلوقات التى تراه ، سواء كانت إناساً أو وحوشاً أو ملائكة أو آلهة » . وينتصر العقل ، لكن ما الذى تعنيه تأكيداته فى عالم اللامعقول ؟

إن ما يراه الملاك أو الإله لا معنى له بالنسبة لى ، وستظل أبداً نقطة التقاء العقل الإلهى وعقلى شيئاً منغلقاً دونى لا أفهمه . وهنا أيضاً أرى أن هسرل قد قفز ، ومع أنها كانت قفزة فى المجرد ، لكنها تعنى مع ذلك بالنسبة لى نسيان ، ما لا أريد أن أنساه .

وعندما يقول هسرل بعد ذلك «لو أن كل الكتل موضوع الجاذبية قد اختفت ، فإن قانون الجاذبية لن يختفى مع ذلك ، لكنه سيبقى دون تطبيق » . هنا أجد أن هسرل يعزينى ، وهو يعزينى ميتافيزيقيا . وإذا أردت أن أكتشف هنا النقطة التى يترك فيها الفكر عند هسرل الاستدلال بالشهادة الحسية فما علىّ إلا أن أعيد قراءة منطق هسرل الذى يسوقه بخصوص العقل « لو تأملنا بتمعن القوانين المضبوطة التى تحكم العمليات النفسية لبدت لنا هى الأخرى قوانين أبدية لا تتغير ، كالقوانين الأساسية التى تحكم العلم النظرى الطبيعى . ومن ثم تكون هذه القوانين صحيحة حتى ولو لم توجد عمليات نفسية تحكمها » . وهكذا يكون معنى كلام هسرل أنه حتى ولو لم يوجد العقل فإن قوانينه ستظل موجودة ؟ وأن ما يبدو أنه حقيقة نفسية يصنع منها هسرل قاعدة ذهنية: أى أنه بعد أن ينكر وجود عقل إنسانى له قوة وسلطان تامان ، يقفز إلى القول بوجود عقل أكبر هو العقل الأبدى .

وإذن فلن يدهشنى قول هسرل بوجود « عالم متجسد » . وإذا كان

يقول لي بأن وجود كل الجوهريات هو وجود لا يحس ، لكن بعضها مع ذلك مادى ، وأن الجوهريات الأولى هو موضوع بحث العلم ، فإن تفريق هسرل هذا لا يعدو أن يكون تفريقاً بالتعريف ، فالمجرد ليس إلا جزءا من العالم المحسوس . ويثير كلامه هذا الغموض حول استخدامه لهذه التعريفات ، ذلك لأن قوله هذا يعنى أن العالم المادى عالم يثير انتباهى ، فهذه السماء ، أو صورة المعطف المنعكسة على صفحة الماء ، إن هى إلا جزء الواقع الذى يعزله اهتمامى عن بقية العالم . وأنا لا أنكر ذلك ، لكن قوله هذا يعنى بالإضافة إلى المعنى الأول أن المعطف مع كونه موضوع اهتمامى هو أيضاً جزء من العالم ، وله جوهره الخاص به ، وهو جوهر يربطه إلى عالم المحسوسات ، وهنا أجد أن ما أخذناه من معنى أول مرة تغير هذه المرة وصار له معنى مخالفاً : أن هذا العالم لم يعد صورة عالم أكبر منه ، لكن العالم الأكبر قد تجسد فى مجموعة الصور الموجودة على هذه الأرض ، بمعنى آخر ، فإنى هنا بدلا من أن أواجه المادى المحسوس ، أى معنى الواقع الانسانى ، لا أجد إلا فكراً يهم المادى المحسوس نفسه ، أى بدلا من أن أواجه هذا المادى المحسوس لا أجد إلا فكرة هذا المادى المحسوس نفسه. وهكذا نواجه تناقضاً يؤدى بالفكر إلى نفى نفسه بأن يقابل بين العقل فى تواضعه وبينه فى زهوه وانتصاره .

* * *

وإذن فليست المسافة ببعيدة جداً بين فكرة الإله المجرد التى يقول بها هسرل ، وبين الفكرة البراقة لإله كيركجورد . فالعقل الذى قال به هسرل أدى نفس الموعظة التى أداها اللاعقل الذى قال به كيركجورد ؛ فكأن الحقيقة لا تهم ، إنما المهم الإرادة التى توصل إلى هذه الحقيقة . إن الإرادة هنا تكفى دون الحقيقة . ولقد بدأ هنا الفيلسوف التجريدى والفيلسوف الدينى من بداية واحدة ، من نفس التيه ، وتعاونا معاً

متساندين تجاه نفس القلق . إن الحقيقة لاتهمهما . إن ما يهمهما هو أن يتكلما ، يفسرا ، فالغثيان هنا أهم من العلم .

وهكذا نجد أن من أهم سمات العصر أن فكره يلتصق التصاقاً عميق الجذور بفلسفة تقول بلا معنى العالم ، ومع ذلك فهى لا تقول هذا فقط ، وإنما هى تنقسم على نفسها تجاه النتائج التى تتوصل إليها ، بين حركة التعقيل للواقع التى تجعل من الفكر مجموعة من المذاهب العقلية القياسية ، وبين الحركة اللاعقلية التى تقدس الفكر وتنصبه إلهاً . وهذه المفارقة مع ذلك هى مفارقة ظاهرية ، وذلك لأن من الخطأ البين أن نعتقد أن طريق العقل هو طريق ذو اتجاه واحد ، فحتى طريق العقل يمكن أن يوصل إلى الله ، وإذا كان للعقل أن يعتقد اعتقاداً واحداً فهو على خطأ ، فهذا الاعتقاد أو غيره خطأ مادام أنه اعتقاد واحد يرفض غيره . ومنذ بلوتينوس تعلم العقل أن لا يبالى بما يقيمه من مبادىء ، وأن يرتاد المجاهل ليمزج بين عقلانية العقل ولا عقلانيته ، أو بين المادى وبين الإلهى ، أو بين المتناقضين ، كى يدخل اللاعقلى إلى عالم العقلى ويكامله(١) ؛ وصار العقل أداة الفكر وليس الفكر نفسه ، كما صار الفكر نفسه هو هم الإنسان المقيم .

ومثلما استطاع العقل أن يهدىء من تشاؤم بلوتينوس ، استطاع عصريا أن يعد القلق بالوسيلة التى تهدىء من غلوائه داخل إطار فكرة

---

(١) ا — كان على العقل وقتها أن يفتح نفسه وإلا يموت ، ففتح نفسه ، ومع بلوتينوس اتجه العقل من المنطقية إلى الإلهية ومن استخدام القياس إلى استخدام المجاز .

ب — بالإضافة إلى ذلك لم يكن هذا هو كل جهد بلوتينوس الذى أثرى به الظاهراتية ، فوقفه السابق كله ضمنه هذا المفكر الاسكندرى فى فكرته الأثيرة عنده والتى تقول : لاتوجد لدى الإنسان فكرة واحدة فقط هى فكرته عن نفسه لكن توجد لديه كذلك فكرته عن سقراط .

الأبدية التى لدى الناس . لكن العقلية اللامعقولة لم تجد فى العقل هذه الوسيلة لأنها ترى أن العالم ليس بالمعقول الذى يمكن إدراكه بالعقل ، أو باللامعقول المستحيل إدراكه به . إنما العالم شىء مغلق لا يمكن النفاذ إليه عن طريق العقل . لكن هسرل رأى فى العقل إمكانية لا محدودة لفهم العالم .

أما اللامعقول فهو يضع حدوداً لإمكانيات العقل ، ويرى أنه غير قادر على إسكان هذا القلق الذى يأكله . بينما يرى كيركجورد وحده أن حداً واحداً لا غير يكفى لنفى هذا القلق .

لكن اللامعقول لايذهب بعيداً حتى هذه النهاية ، وهو يرى أن حدود العقل هى شىء خاص به ، وأن العقل وحده هو الذى يضعها . وتصير فكرة اللامعقولية عند الوجوديين هى العقل وقد اضطرب وتبلبل أمام لا معقولية الوجود ، وعندئذ يبحث عن الهرب بأن ينفى نفسه ، فاللامعقول عندهم هو العقل فى سعيه لتعرف حدوده .

لكن إنسان اللامعقول هو الإنسان الذى يدب على هذا الطريق الوعر ، ويتعرف فيه إلى دوافعه الحقيقية . وهو إذ يقارن بين ما يريده وبين ما فى يديه يحس فجأة أنه لابد أن يترك هذا كله ويهرب ، لأن العالم يغمض عليه ؛ لكن العالم عند هسرل يصير واضحاً ، ويتحول شبق الانسان الذى يهز كيانه هزاً ، كى يجد فى كل شىء حوله أشياء عادية قد ألفها بدلا من أن تكون غريبة غامضة مستغلقة عليه ، إلى شىء عديم الجدوى بلا فائدة . بينما ينصرف كيركجورد عن الوضوح كى يرضى هو نفسه .

إن الخطيئة لا تصبح المعرفة الزائدة (ولو كانت لكان الناس كلهم أبرياء) لكن الخطيئة تصير إرادة المعرفة أو السعى للمعرفة . وهو أمر يراه إنسان اللامعقول حقاً ، فإرادة المعرفة تكون ذنبه وبراءته معاً .

لكنهم يقولون له إن الحل الذى نعرضه عليك هو حل قد صارت فيه كل المتناقضات القديمة مجرد ألعاب فى صورة مناقشات . لكن إنسان اللامعقول لا يرى هذا الرأى فيها ، لأنه لم يجر بها بهذه الصورة ، وهو لا يريد أن يقف من الناس موقف الواعظ يقدم مواعظه ، ولا يريد أن يقف منه الناس موقف الواعظ . إنما عقلى يريد أن يكون أمينا مع الشواهد التى أثارته ، وهذه الشواهد هى شواهد اللامعقول .

إنها المفارقة بين العقل الذى يرغب ، وبين العالم الذى يحبط رغباته . وهى غثيانى الذى يهفو للوحدة ، هذا العالم المنقسم إلى أقسام ، وهذا التناقض الذى يربط بين أجزائه ربطاً . ويضغط كيركجورد على غثيانى ، بينما يجمع هسرل أجزاء عالمى ، لكن هذا ما لم أتوقعه . إنما كنت أريد أن أعيش وأفكر فى هذه المفارقات ، أن أعرف ما إذا كنت أقبلها أو لا أقبلها . وليس من المعقول أن ألغى اللامعقول بأن أنكر أحد طرفى المعادلة التى يتكون منها . لابد أن أعرف ما إذا كنت أستطيع أن أعيش باللامعقول أو لا أعيش به . لكن المنطق يطلب منى أن أموت ، أموت من اللامعقول ، وأنا لا يهمنى الانتحار الفلسفى ، لكن ما يهمنى هو الانتحار العادى ، أريد أن أحلله من محتواه العاطفى ، وأعرف منطقه وما الذى يكونه .

وخلاف ذلك يكون خداعا بالنسبة لعقل اللامعقول ، لأنه سيكون تراجعاً من العقل أمام ما اكتشفه العقل . ويطالب هسرل بطاعة الرغبة فى الهرب « من عادة العيش والتفكير فى ظروف معينة معروفة ومريحة من ظروف الوجود » ، لكن القفزة النهائية تعيد إليه الأبدى وما يتبعه من راحة . ولا تشكل القفزة خطراً كبيراً مثلما هى عند كيركجورد . إنما الخطر على عكس ذلك ، يكمن فى اللحظة الدقيقة التى تسبق القفزة ، فأنا أستطيع أن أبقى على هذه القمة المديرة للرأس — هذا هو التكامل

— وأعرف كذلك أن العجز لم يلهم فى يوم من الأيام مثل هذه الانسجامات التى قال بها كيركجورد ، لكن إذا كان العجز له مكانه فى فترات التاريخ المختلفة ، فليس له مكان فى عقل عرفت الآن متطلباته .

* * *

الحرية اللامعقولة

وإذن فلدينا الآن وقائع أستطيع أن أفصل نفسى عنها . المهم الآن هو ما أعرف ، ماهو مؤكد ، ما لا أستطيع إنكاره ، ما لا أستطيع رفضه . أستطيع أن أنفى كل شىء عن هذا الجزء من نفسى الذى يعيش على أوهام غامضة ، إلا هذه الرغبة التى تهفو للوحدة ، هذا الشبق الذى يريد أن يحل ، هذه الحاجة للوضوح والترابط . أستطيع أن أرفض كل شىء فى العالم الذى يحيط بى ، الذى يغضبنى أو يطربنى ، فيما عدا هذا التيه ، هذه الفرصة الالهية ، والاتزان السماوى الذى ينبثق من الفوضى .

إننى لا أعرف ما إذا كان هذا العالم له معنى يتجاوزه . لكنى أعرف أنى لا أعرف ، وأنه من المستحيل علىّ أن أعرف الآن حالا . ما الذى يمكن أن يعنيه لى معنى من المعانى خارج موقفى ؟

بوسعى أن أفهم كل شىء ، لكن فهمى سيقتصر على ما هو فى حدود الامكانيات الانسانية وبلغة الانسان . إن ما ألمسه ، ما يقاومنى — هذا هو ما أفهمه . وهذان اليقينان — شهوتى للمطلق وللوحدة ، واستحالة إرجاع هذا العالم إلى مبدأ معقول عقلى — هذا ما أعرف أنى لا يمكن أن أحققه فى وقت واحد .

أية حقيقة أخرى يمكن أن أعترف بها دون أن أكذب ، دون

أن ألجأ إلى أمل ينقصني ، وهو ما يعني لا شيء داخل حدود موقفي ؟

لو كنت شجرة بين الشجر ، أو قطاً بين الحيوانات ، لكان لهذه الحياة معنى ، أو لما قامت هذه المشكلة ، لأنه كان يجب أن أنتمي لهذا العالم ، كان يجب أن أكون هذا العالم الذي أقف منه الآن معارضا بوعيي كله وإصراري كله على الألفة .

هذا المنطق السخيف هو الذي يوقفني معارضاً للخلق كله . لا أستطيع أن ألغيه بضربة قلم . ما أعتقد أنه حقيقي هو ما يجب أن أحافظ عليه . ما يبدو لي واضحا ، حتى ضدي ، هو ما يجب أن أساعده .

فما أساس ذلك الصراع ، ذلك الانفصال بين العالم وبين عقلي ، إن لم يكن هو الوعي به ؟ فإذا أردت لذلك أن أحافظ عليه فإني لمستطيع بأن أبقى على وعي مستمراً ، حيا دائما ، متوثبا أبداً . هذا هو ما لا يجب أن أنساه . ويعود اللامعقول في هذه اللحظة ، وقد صار واضحا ، ومع ذلك أشد استعصاء على الامساك به ، إلى حياة الانسان ليمثل على بيته هناك . ويستطيع العقل لذلك ، في هذه اللحظة أيضا ، أن لا يبذل جهدا ، ويضرب في طريق وعر جاف . لقد صار هذا الطريق شيئا ضمن الحياة اليومية ، يجيبه عالم الضمير « هو on » الغائب المجهول ، وتقدم الانسان بثورته ووضوحه . لقد نسي الأمل الآن . صارت مملكته أخيرا هي هذا الجحيم الذي للحاضر ، واستعادت كل القضايا حدتها ، وتراجع التفكير المطلق مفسحا لشعر الأشكال والألوان ، وتجسمت الصراعات الروحية وعادت إلى ظل قلب الانسان ، هذا الظل البشع والرائع معا ، ولم تستقر لكنها شاهت واختلطت .

هل يموت المرء ؟ يهرب بأن يقفز ؟ يعيد بناء قصر الأفكار والأشكال التي تناسبه ؟ أم هل يقبل المرء على عكس ذلك تحدي اللامعقول ، هذا التحدي الرائع الذي يضني القلب ؟ لنحسم هذه المشكلة . إن الجسد

والعاطفة والخلق والعمل ونبل الإنسان ، كلها أمور ستستعيد أما كنها فى هذا العالم المجنون . وسيجد الإنسان هناك أخيراً خمر اللامعقول وخبز اللامبالاة اللذين سيطعم بهما عظمته . ولن يعدم التاريخ الأديان أو الأنبياء ، أو لن يعدمهما حتى بدون آلهة ، وسيسأل المرء أن يقفز ، فما عليه إلا أن يجيب بأنه لا يفهم ، بأن هذا شيء ليس واضحاً . ولن يفعل إلا ما يفهمه جدا . وسوف يقولون له مؤكدين إن ما يفعله هذا ليس إلا خطيئة الغرور ، لكنه لن يفهم فكرة الخطيئة . ربما كان الجحيم فى انتظاره ، لكنه بلا خيال واسع يصور له هذا المستقبل الغريب ، سيفقد الحياة الأبدية ، لكن لا يهم . وسيحاولون أن يستخلصوا منه اعترافاً بذنبه ، لكنه يحس أنه برىء . هذا هو كل ما يحس حقيقة — أنه برىء براءة كاملة . وهذا هو ما يتيح له أن يفعل كل شىء . وإذن فما عليه إلا أن يعيش ، أن يعيش فقط بما يعرف ، أن يتلاءم مع ماهو موجود ، وأن لا يطلب ماهو موضع شك . يقولون له لا شىء موجود . لكن هذا الذى يقولون هو اليقين الذى يبحث عنه ، وهو ما يهمه . إنه يريد أن يعرف ما إذا كان من الممكن أن يعيش دون أن يلجأ إلى سلطان أعلى منه .

***

وأستطيع الآن أن أقترب من فكرة الانتحار . ولقد ناقشنا الحل الممكن للمشكلة ، لكنا وجدنا أن المشكلة أخذت شكلا جديداً هو هل للحياة معنى يمكن أن نعيشه أو أنها بلا معنى . ثم قلنا إنها بلا معنى ، وأنها مع ذلك لابد أن تعاش رغم أنها بلا معنى ، وكوننا نعيش تجربة ما ، أو قدراً ، يعنى أننا نقبل هذه التجربة أو هذا القدر ، فإذا كان معنى الحياة هو اللا معقول ، وكان علينا أن نتقبل اللامعقول فلا مجال لتقبله إلا بأن نعيه دائماً . واللا معقول يتركب من معادلة لها طرفان ، وإنكار

أحد الطرفين معناه نفيه والهرب من المشكلة . وهكذا نصل إلى فكرة الثورة . إن العيش هو إبقاء اللامعقول حياً ، وإبقاؤه حياً معناه تأمله . وعلى عكس إيوريدس يموت اللامعقول فى حالة واحدة فقط ، وهى عندما نتصرف عنه ، وبذلك تصير فكرة التمرد من الأفكار الفلسفية الأصيلة . إنها مواجهة الإنسان للغموض الذى يغلفه مواجهة مستمرة . إنها إصرار الإنسان على تحصيل شفافية من المستحيل أن يحصلها . ويتحدى التمرد العالم كل ثانية . وكما أن الخطر هيء للأنسان الإمساك بالوعى فى كل لحظة يعيشه فيها ، فكذلك التمرد الميتافيزيقى : إنه يعد الوعى إلى التجربة كلها . إنه حضور الإنسان المستمر أمام عينيه . إنه ليس إلهاماً ، لأنه بلا أمل ، إنما التمرد هو يقين القدر الساحق غير مصحوب بعدم اهتمام كان لابد أن يصحبه .

وهكذا نرى أن تجربة اللامعقول بعيدة كل البعد عن الانتحار . وربما قد يظن أن الانتحار يتبع التمرد — لكن هذا خطأ ، لأن الانتحار ليس هو النتيجة المنطقية للتمرد . الانتحار كالقفزة ، هو القبول والرضى فى أقصى تطرفهما . إن الإنسان فيه يرى أن كل شىء قد انتهى ، وهو يرى مستقبله ويحل مشكلة اللامعقول ، يقتل اللامعقول . يدفنه مع الإنسان المنتحر ، فإذا بقى الانسان حياً ظل اللامعقول حياً . واللامعقول يفلت من الانتحار لأنه يعى الموت ويرفضه . اللامعقول هو وعى الموت وهو رفضه . اللامعقول فى أقصى حدوده وأقصى ما يمكن أن يصل إليه فكر المنتحر . إنه الفكر الأخير للمنتحر ، رباط الحذاء الذى يراه على بعد عدة ياردات وهو على حافة الجرف الذى سيتردى فيه حالا . وعكس الانتحار هو الاعدام . إن المرء المحكوم عليه بالاعدام ليحس عكس إحساس المنتحر على طول الخط .

والتمرد الذى نتحدث عنه هو ما يعطى الحياة قيمتها ؛ فهو عندما

يبسط سلطانه على حياة بأسرها فإنه يسبغ جلاله على هذه الحياة . وليس أروع ، عند من لا يخشى شيئاً ، من الذكاء عندما يمسك بالواقع يصارعه ويحاول أن يصعّد به . وليس أروع من غرور الانسان ولا من مواجهته للواقع نداً لند . لذلك كانت المذاهب التى تصاغ للانسان بالواقع مذاهب محطة للانسان . ولذلك كان التمرد والوعى هما عنصرا اللامعقول اللذان يلهبان القلب البشرى . واللامعقول يمتص كل شىء للانسان حتى تمام النهاية ، وإنسان اللامعقول يموت ، مجبراً على الموت ولا يموت من تلقاء نفسه . واللامعقول هو أقصى ما يمكن أن يمتد إليه التوتر ، وهو يصله بمجهوده المفرد ، لأنه يعرف أنه فى هذا الوعى ، وفى هذا التمرد الذى يثور به من يوم ليوم ، يبرهن على حقيقته الوحيدة التى تحويه . هذه هى النتيجة الأولى .

* * *

ولو ظللت على هذا المنهج الذى يتلخص فى استنتاج كافة النتائج من فكرة اللامعقول ، فعلىّ أن أتخلص من علاج مشكلة الحرية الميتافيزيقية . لا يهمنى أن أعرف أن الانســـان حر أو ليس حراً . ما يهمنى هو ما بوسعى أن أمارسه أنا من حرية ، حريتى أنا . ولست أعالج هنا أفكاراً عامة ولكنى أعالج أشياء واضحة تخصنى أنا من خلال تجربتى . ومشكلة « الحرية على هذا الأساس » لا معنى لها . إنها ليست مشكلة ، لأنها مرتبطة بمشكلة الله . وأنا عندما أقول بأن الانسان حر أو غير حر يعادل قولى أن الانسان له سيد أو ليس له سيد . واللامعقول فيما يتعلق بهذه المشكلة يتأتى من أن نفس الفكرة التى تجعل مشكلة الحرية ممكنة الحل هى نفسها التى تسلبها معناها ، لأنه فى حضور الله لا توجد مشكلة حرية بقدر ما توجد مشكلة شر . إننا أمام أحد أمرين : إما أننا لسنا أحراراً وأن الله هو الأقوى وهو المسئول لذلك عن الشر ، وإما أننا

أحرار ومسئولون ، والله فى هذه الحالة ليس الأقوى . وكل الفلسفات لم تحسم المشكلة أو تستخلص شيئاً منها .

لذلك لن أعالج مشكلة تتعدى حدود وعي وتهرب منى إلى خارج حدود تجربتى الفردية . ولن أفهم نوع الحرية التى يمكن أن يسبغها على مخلوق أعلى منى . لقـد فقدت الإحساس بالقبلية وسـلطة الأعلى . والتصور الوحيد للحرية الذى يمكن أن أتصوره هو تصور السجين لهـا ، أو تصور الفرد الذى يعيش فى دولة .

وهذا التصور الوحيد الذى هو تصورى للحرية هو تصورى لحرية الفـكر والعمل . فلو كان اللامعقول يلغى كل فرصى فى الحرية الأبدية ، فإنه يعيد إلىّ ويضخم لى على العكس حريتى فى العمل ، التى هى زيادة فى الأمل والتى تعنى المستقبل ، وتعنى مزيدا من الإمكانيات لمشروعى .

وإنسان الحياة اليومية ، قبل أن يلتقى باللامعقول ، يعيش مع الأهــــداف ، يهتم بالمستقبل ، ويحفل أن يجد سبباً (لا يعنينا لمن أو لأى شىء) . إنه يوازن فرصه ، ويضع فى حسابه أنه سيتلقى مساعدة ما ، ربما من شخص ، ربما من أولاده ، وربما من معاشه . وهو لايزال يظن أن شيئاً ما فى حياته يمكن أن يتجه وجهة معينة ، ويتصرف كما لو كان حراً ، حتى ولو كانت كل الدلائل تناقض هذه الحرية . لـكنه بمجرد أن يعثر على اللامعقول ينقلب كل شىء على عقبيه ، فلايصبح للحياة معنى ، وتتحول « أنا أكون » إلى كذبة تجاه حقيقة الموت ، ذلك لأنى لا أفـكر فى المستقبل وأحدد أهدافا لنفسى إلا لو افترضت أنى حر ، حتى ولو لم أصرح بذلك جهراً . لـكنى عندما أعثر باللامعقول أدرك أن هذه الحرية المدعاة ، حرية أن « أكون » هى حريه غير موجودة ، فالموت يكمن لى هناك بالمرصاد كواقع أولى . فماذا يهم بعد الموت ؟ إننى لست حرا ، بل عبداً بلا أمل . إننى لا آمل فى أن أثور ثورة أبدية ، ولست

أملك أن أحتقر ما يعطى لى . فإذا لم تكن لى القدرة على الثورة على الحقائق الكبرى ، أو الحقائق الأبدية . وإذا لم يكن فى وسعى أن أحتقر ، فهل أستطيع أن أتمرد على عبوديتى ؟ وأية حرية هذه التى يمكن أن توجد بمعناها الأكمل دون أن يكون لها سند من الأبدية ؟

لكن إنسان اللامعقول يدرك أنه كان قد ارتبط بالحرية بوهم أنه كان يعيش ، بمعنى أن وهم الحرية الذى كان لديه كان يعوقه ، لدرجة أنه كان يعتقد أن للحياة هدفاً ، ووائم نفسه إلى أهداف الحياة فصار عبداً لحريته . إننى عندما أضع فى اعتبارى أن أكون مهندساً أو زعيما لأمة أو موظفاً عمومياً ، فإنى أعمل لكى أكونه . إن الهدف يستعبدنى ، لكنى لا أحس ذلك ، فما يحدث داخلى يحدث بلا وعى منى ، وارتبط أكثر بمن حولى وبمعتقداتهم وبالبيئة التى أعيش فيها ، وأتأثر بذلك كله حتى ولو حاولت جهدى أن لا يكون له أثر على حياتى ، وحتى لو حاولت أن تكون ارتباطاتى بالآثار الحسنة دون السيئة . إننى أتلاءم معها . لكنى عندما أعثر باللامعقول أفاجأ بأنى لم أكن حراً ، يوم أن أملت وبحثت عن هدف لحياتى ، عن أن أكون أو أن أخلق لأنظم حياتى وأقبل أن يكون لها معنى . هكذا أخلق لنفسى عوائق وحيطان أقبع داخلها وأكتفى بها . إن داخلها هو أملى وهدفى الذى حددته لحياتى . إنى أفعل مثلما يفعل كل البيروقراطيين، كل المكتئبين فى القلب والعقل ، الذين يملأونى بالاشمئزاز ، والذين لا خطيئة لهم إلا خطيئة أنهم قد أخذوا قضية حريتهم مأخذ جد واعتقدوا فيها اعتقادا صريحاً .

لكن اللامعقول ينيرنى فى هذه النقطة ، فليس هناك مستقبل ، وهذا هو سبب حريتى الداخلية ، وسوف استخدم تشبيهين هنا . إن الصوفيين يجدون الحرية بتصوفهم ، بأن يذيبوا أنفسهم فى الله، بأن يقبلوا قواعده ، فهكذا يصبحون أحراراً حرية داخلية . إنهم فى عبوديتهم لله، التى ارتضوها

لأنفسهم ، يحسون أنهم قد استعادوا شيئاً فيهم : استقلالهم استقلالا هو الأعمق . لكن ما الذى تعنيه هذه الحرية ؟ ربما قيل إنهم يحسون انهم احرار لا بمعنى الحرية لكن بمعنى الخلاص ، تماما مثلما يتنبه إنسان اللامعقول إلى وجود الموت فيتخلص من كل شىء خارج امتلائه بتلك العاطفة نحو الموت التى يزداد أوارها فيه . وعندئذ يتخلص من القواعد العامة ، ويكسب حرية هى حرية اللامعقول . إنها الوعى المفاجىء ، والهروب من النوم اليومى . هذان هما أولى خطوات التقدم نحو العثور على حرية اللامعقول . وهذه هى الفلسفة الوجودية . لكن عندما تقول هذه الفلسفة بالقفزة فإنها تهرب من الوعى ، تماماً مثل يفعل الصوفية ، عبدة القديم : إن الاثنين يفتقدون أنفسهم ولا ينتمون إليها . إنهم يفتقدون الحرية التى تحدثت عنها ولو انهم يعرفون نوعاً آخر من الحرية هى حرية الإحساس بأنهم غير مسئولين . لكن إذا كان هذا هو نوع الحرية التى يحسونها فالموت هو الآخر يعطى حرية عندما يسحق ويزهق بيديه . إنه يحرر كذلك .

وفقدان الذات فى هذا اليقين الذى لا قاع له ، والإحساس بالبعد عن حياتى كى أزيدها ، وأراها من على البعد أكثر . هذا هو المبدأ الذى يسير عليه تحررى . وهذه الحرية موقوته ، أو أن لها حدوداً زمنية،مثلها مثل أية حرية عمل . إنها ليست حرية أبدية ، لكنها تحل محل «الأوهام» التى كانت عندى بشأن « الحرية » ، والتى توقفت عندما جُبهت بالموت .

إن المحكوم عليه بالإعدام عند ما تنفتح أمامه أبواب السجن فى فجر أحد الأيام ، ليستقبل الحياة للمرة الأخيرة قبل تنفيذ الحكم عليه ، عندئذ يرى شعلة الحياة صافية — فى هذه اللحظة — عندها يرى الموت بوضوح ، واللامعقول بوضوح ، ويرى أن الموت واللامعقول هما دعامتا الحرية الوحيدة المقبولة ، التى يمكن للقلب الإنسانى أن يجربها ويعيشها .

وهذه هى النتيجة الثانية . إن إنسان اللامعقول إذن يمسك رؤيا عالم يحترق ، بارد ، شفاف ، ومحدود ، لا شىء فيه ممكن ، لكن كل شىء فيه معطى ، وبعده يتهاوى كل شىء ولا يوجد إلا العدم . وعندئذ يقرر أن يقبل هذا العالم ، ويستمد منه قوته ، رفضه للأمل ، والعزم على الحياة فى حياة بلا أمل .

* * *

لكن ما معنى الحياة فى عالم كهذا ؟ إنها فى هذه اللحظة بلا معنى إلا أن تكون اللاحتفال بالمستقبل ، والرغبة فى استهلاك كل ما فيها ، والاعتقاد فى معنى للحياة يعنى أن الحياة تتدرج فيها القيم ، وأن علينا أن نختار بينها ونفاضل . لكن الاعتقاد فى اللامعقول طبقاً لما عرفناه به يعنى العكس تماما . لكن ما معنى هذا ؟

كل ما يهمنى أن أعرف هل يستطيع الإنسان أن يعيش أم لا بدون إله ؟ هل فى وسعى أن أتلاءم مع الحياة بمفهومها الذى اكتشفته فيها الآن ؟ إننى إذ أعتقد فى اللامعقول أضع الكمية محل النوعية ، لأنى لو أقنعت نفسى بأن هذه الحياة ليس لها وجه سوى اللامعقول ، وإذا كنت أحس بأن اتزانها الكامل يعتمد على التعارض الدائم بين تمردى الواعى وبين الظلام الذى يصارعه ، وإذا اعترفت بأن حريتى لا معنى لها إلا فى علاقتها بقدرها المحدود ، وإذن فعلىّ أن أقول إن المهم ليس هو أن نعيش أحسن معيشة ، بل أن نعيش أقوى معيشة . وليس لى أن أتساءل عما إذا كانت هذه الحياة حياة مقززة ، أو راقية ، أو مؤسفة ، فالأحكام لا مجال لها هنا ، إنما علىّ أن أنتهى إلى نتائج فيما أرى ، وأن لا أخاطر بشىء فرضى ، ولو افترضت أن الحياة التى أحياها خصبة بهذه الطريقة هى حياة منافية للشرف فيها ونعمت ، لأن علىّ أن أحتضنها مع ذلك فهى حياتى .

لـكن ما معنى أقوى معيشة ؟

إنه تعبير لا يفيد شيئاً ويحتاج إلى المزيد من التعريف . ولقد قلنا إنه الـكم ، أو أنه أن يعيش الإنسان كمية من التجارب . وليس لسلوك المرء ولا لمدرج قيمه أى معنى إلا من خلال كمية وتنوع التجارب التى استطاع أن يراكمها . لـكن ظروف الحياة الحديثة تفرض على أغلب الناس نفس كمية التجارب أو نفس التجربة الواحدة مكررة . ولابد كذلك أن نضع فى الاعتبار المساهمة التلقائية التى يستطيع الفرد أن يسهم بها فى ذلك ، أو ما يمكن أن نطلق عليه عنصر « العطاء » فيه .

وإذن ففى رأيى أن شخصية الفرد هى فى مجموع القوانين الأخلاقية العامة ، ليست فى الأهمية المثالية لمبادئها الرئيسية بقدر ما فى تجربة قياسية يمكن أن نقيسها بها .

ولنزيد الأمر وضوحاً ، نقول إن الإغريق كانت لهم مسراتهم التى تسير على منوال أو قواعد معينة مثلما يسير يوم العمل ذو الثمانى ساعات على منوال معين . لـكن كثيراً من الرجال الذين عاشوا المأساة فى أعماقها جعلونا نرى أنه كلما طالت التجربة كلما تغيرت قائمة القيم ، وأن المغامر الذى يدخل غمار عدد من التجارب هو الذى يكسر الأرقام القياسية (وأنا أستعمل هنا هذا التعبير الرياضى عن قصد) ؛ وأنه من خلال هذه الكمية المحضة من التجارب يفوز بسبق قوانينه الأخلاقية [1].

ولنتأمل ما الذى يعنيه موقف كهذا لإنسان بعقلية المغامر ، ولنر فكرته عن قواعد اللعب الرياضى .

---

(١) أحيانا ما يعنى الـكم نوعاً كذلك ، وتؤكد النظريات العلمية أن كل مادة بداخلها مراكز طاقة ، وهكذا تتحدد طاقة هذه المراكز طبقا لـكمية المادة ، فالبليون ايون تختلف عن الإيون الواحد فى الـكم وكذلك فى النوع . ولو نقلنا هذا الكلام وطبقناه على التجارب الإنسانية لوجدناه صحيحا كذلك .

إن كسر الأرقام القياسية يعني أولا أنه يواجه العالم عدداً من المرات ما استطاع ذلك ؛ وأنى له أن يفعل بدون متناقضات ومن غير أن يلعب بالألفاظ ؟ لأن اللامعقول يقول بأن كل التجارب لا أهمية لها ، ومع ذلك فهو يحثنا إلى الدخول في أكبر كمية من التجارب .

وإذن فكيف يمكن أن نفشل في فعل ما فعله كثير من الرجال الذين تحدثت عنهم سابقاً — أن نختار شكل الحياة الذي يمنحنا أقصى ما نستطيع من المادة الإنسانية ، مهيئاً لنا استقبال مدرج قيم نطالب برفضه ؟

ولنكرر أن الذي يعلمنا هو اللامعقول ومتناقضاته . لأن الخطأ هو أن نظن أن تلك الكمية من التجارب تتوقف على ظروف حياتنا مع أنها تتوقف فقط لا غير علينا نحن أنفسنا . ولنزد الأمر وضوحاً . إن العالم يوجد دائماً الرجلين اللذين يعيشان نفس عدد السنين ونفس عدد التجارب ، لكننا لا نلحظ ذلك ، فلو تأملنا هذه الحقيقة لوجدناها صحيحة ، لكن الأمر يتوقف على وعينا . وإن نحن وعينا حياتنا وتمردنا وحريتنا أقصى ما نستطيع من وعي ، فإننا نعيش ، وإلى أقصى ما نستطيع من حد . وحيث يسود الوضوح تنعدم فائدة مدرج القيم . لنقل في بساطة أن العقبة الوحيدة التي تعوق ممارستنا للخير هو أن نموت مبكرين ، وهكذا لا يمكن لإنسان اللامعقول أن يساوي بين أي عمق ، ولا أية عاطفة ، ولا أي حماس ، ولا أية تضحية ، ولا حياة واعية تمتد إلى أربعين سنة ، وبين وضوح يسم حياة تزيد على الستين . شيئان لا يمكن أن يصلحهما إنسان اللامعقول : الجنون والموت . الانسان لا يختار ، وإذن فلا تعتمد اللامعقولية والحياة اليومية التي نحياها على إرادة الانسان ، لكن على نقيضها الذي هو الموت . وليس على الانسان إلا أن يترك أمر موته للصدفة . عليه أن يرضخ لذلك . ولن تكون هناك خاتمة لحياة تستمر عشرين سنة أو نحوها من التجارب إلا هذه الخاتمة .

ومن الغريب أن هذا الشعب العجيب شعب الإغريق قال إن من يموت صغيراً هم المحبوبون من الآلهة ، وهذا صحيح لو صدقت أن الدخول إلى عالم الآلهة السخيف هو بمثابة فقدان لأنقى الأفراح وهو الإحساس ، والإحساس على هذه الأرض . ومثل إنسان اللامعقول الأعلى هو الحاضر وتوالى لحظاته بعد ذلك ، والروح الواعية تعانيه باستمرار . ويبدو تعبير مثل أعلى تعبيراً زائفاً هنا فى غير محله ، فليس هذا المثل الأعلى هو شغل انسان اللامعقول ، لكنه النتيجة الثالثة لما يعتقده : فهو قد بدأ بالوعى باللا إنسانى وعياً مهموما ، وعاد تأمله للامعقول فى نهاية جولته إلى صميم قلب شعلة التمرد الإنسانى .

***

وهكذا أخلص من اللامعقول بثلاث نتائج هى التمرد وحريتى وانفعالى . وعن طريق نشاط الوعى أحيل إلى قاعدة من قواعد الحياة ما كان دعوة إلى الموت ـ وأرفض الانتحار . وأعرف ما يتردد هذه الأيام من أقوال غبية وليس لى أن أرد عليها إلا بكلمة هى أنها ضرورية ، فعندما كتب نيتشه « ويبدو واضحاً أن الشىء الرئيسى فى السماء وعلى الأرض هو أن نطيع أخيراً اتجاهاً واحداً : أنه على المدى الطويل ينتج شىء ما يستحق منا عبء العيش على هذه الأرض ، كأن يكون هذا الشىء هو الفضيلة مثلا ، الفن ، الموسيقى ، الرقص ، العقل ـ شىء ما فى طاقته أن يحيل الأشياء إلى أشياء أخرى ، شىء رقيق ، مجنون ، أو سماوى» فسّر نيتشه قاعدة عدم تكامل مجموعة القوانين الأخلاقية ، لكنه ألقى الضوء كذلك على طريق إنسان اللامعقول . فإطاعة اللهب هو أسهل وأصعب شىء نعمله ، ومع ذلك فمن الخير للانسان أن يحكم على نفسه من آن لآخر ، فهو الوحيد القادر على ذلك ، ويقول « ألان » « إن الصلاة تمارس فى الوقت الذى يغيب فيه الفكر وينسدل عليه ظلام الليل ، لكن الصوفيين

والوجوديين يردون قائلين : « وعلى العقل أن يواجه الليل » . حقا ، لكن ليس هذا الليل الذى يولد بين أطباق الجفون ومن خلال إرادة الانسان المطلقة ـ الليل المظلم الذى لا يُخترق والذى يستدعيه العقل حتى ينفذ إليه . وإذا كان على العقل أن يقابل أى ليل فليكن ليل اليأس القطبي ، ولينتج عن صدامهما ذلك البريق الأبيض العذرى الذى يحدد معالم كل موضوع فى ضوء الذكاء ، وإذن فلا يكون ثمة داع للقفزة الوجودية ، ولتعد هذه إلى آثار المواقف الانسانية الدارسة ليتفرج عليها من يشاء ، لأن هذه الفقرة ذاتها بالنسبة لهذا المتفرج ماتزال لا معقولة ، وطالما أنها تفكر فهى تلغى التناقض . وعلى هذا الأساس يعود كل شىء إلى حاله ويولد العالم اللامعقول من جديد فى كل أبهته وتنوعه .

هل أتوقف ؟ كلا . لايمكن أن أكتفى بطريق واحد أرى من خلاله الأمور ، طريق عدم التناقض ، وربما كان هو أرق القوى الروحية ، فكل ما سبق إن هو إلا تحديد لطريقة من طرق التفكير . لكننا لسنا بإزاء هذا ، إنما ما يهمنا هو أن نعيش .

***

إنسان اللامعقول

« لو كان ستافروجين يؤمن فهو لا يظن أنه يؤمن . ولو كان لا يؤمن فهو لا يظن أنه لا يؤمن . »

دستويفسكى فى « الممسوسون »

قال جوته « إن مجالى هو الزمن » ، وهذا بالضبط هو الكلام الأبسوردى الذى لا يقول به إلا إنسان اللامعقول ، فما هو إنسان اللامعقول هذا ؟ إنه الإنسان الذى لا يهمل من أجل الأبدية ، وذلك دون أن ينفى الأبدية . واللامعقولية جزء منه ، لكنه يفضل أن يسير

فى الحياة متمالكا لشجاعته ومنطقه . وتعلمه الشجاعة أن يعيش دون أن يلجأ إلى شىء ما خارج ذاته ، وأن يستمر فى الحياة بما لديه . ويعلمه المنطق ماهية حدوده ، وهو يثق فى حريته الزمنية المحدودة ، ويعرف أن تمرده بلا مستقبل وأن وعية سرعان ما سيموت ، ويعيش مغامرته داخل حدود ما أوتى من عمر . إن عمره هو ميدانه ، هو فعله الذى يحميه من حكم الآخرين عليه . إنه لا يقبل إلا حكم نفسه على فعله ، والعمر الأطول لا يعنى بالنسبة له حياة أخرى ، وليس النسل كذلك حياة أخرى . إنى لا يعنينى أن ينسل الإنسان ، وأن حياته ستستمر فى خلفه .

ولا يهتم إنسان اللامعقول بالأخلاق . ولقد رأيت أناساً كثيراً يسلكون مسلكا ضد الأخلاق ومع ذلك فسلوكهم كان أخلاقياً بالدرجة الأولى ، وإذن فالتكامل الأخلاقى لا قواعد له ، وإنسان اللامعقول لا يعترف بالقوانين الأخلاقية . إلا القانون الذى لا ينفصل عن الله ، القانون الذى أملاه الله على الإنسان ، لكن يتصادف أن إنسان اللامعقول يعيش خارج الله ، وهو عندما يرى الآخرين يتصرفون تصرفاً منافياً للأخلاق ، لا يرى أنهم يفعلون ذلك ، ويجد المبررات لتصرفاتهم . وهذا هو ما أعنيه عندما أقول إن إنسان اللامعقول هو إنسان برىء innocent. وعلينا أن نخشى هذه البراءة . إن إيفان كارامازوف يعلنها قوية « كل شىء مباح » ، وصرخته صرخة من اللامعقول ، بشرط أن لا نأخذها بالمعنى العادى ، إننا لو أبحنا كل شىء فمعنى ذلك أننا لا نمنع أى شىء ؛ لكن اللامعقول لا يتركها فوضى . إنه يربط الإنسان ولا يحرره . إنه لا يبرر الأفعال ، ولا يبرر اللامعقول الجريمة ، وإذا كانت كل التجارب لها اهتماماتها المتساوية بمعنى أنها جميعاً لا تهم ، يكون الواجب شيئاً مشروعاً كأى شىء آخر ، ويكون فعل الفضيلة شيئاً نأتيه

بالصدفة ، فالإنسان بالصدفة يكون شريراً ، وبالصدفة يكون خيراً .

وتقوم كل الدساتير الأخلاقية على فكرة أن الفعل الإنسانى نتائجه ، ونتائج الفعل هى التى تحدد مشروعيته . والعقل الأبسوردى يتأمل هذه النتائج ، وهو إذ يخطىء قد يدفع ثمن خطأه ، لكنه لايجرّم أحداً ، ولا يعتبر أحداً مذنباً . هناك من يجعل المسئولية من نصيبه ، لكنه لو لم يجعلها كذلك فهو لا يحكم عليه ولايدينه . ويستخدم هذا العقل الأبسوردى تجارب الماضى كأساس تتعين عليه تصرفات المستقبل ، فالزمن يطيل الزمن ، وتخدم الحياة الحياة ، وحياته امتلاء بالامكانيات رغم حديتها وهو لايرى فيها رغم ذلك إلا وضوحها . فأية قاعدة يمكن أن يستخلصها هو من حياة كهذه تسير بلا منطق ؟ إنه لو استخلص حقيقة من الحقائق من هذه الحياة فلن تكون هذه الحقيقة حقيقة سماوية ؛ إنما هى حقيقة إنسانية حياتية ، من الحياة وتبسط نفسها له خلال الحياة .

وسأضرب هنا نماذج لهذه التجارب التى تطيل منطق الأبسورد بما تضفى عليه من مواقفها الخاصة بها ومن حرارتها .

ولن أكرر هنا أن ما أضربه من نماذج يمكن أن يحتذى ، وخاصة فى دنيا اللامعقول . وإذن فهذه الصور التى سأقدمها هنا ليست نماذج ليقلدها الآخرون ؛ ولو فعلنا كما يطلب منا « روسو » وسرنا على أربع ، أو كما يطلب « نيتشه » وأسأنا معاملة أمهاتنا ، أو ما يكتبه أحد المؤلفين المحدثين من أنه « من اللازم أن نكون أبسورديين ، وأن لا يستغفلنا الآخرون » ، لتنكبنا الطريق الصحيح وبلغنا حد السخافة . ولاتهم المهنة ، فالموظف المكتبى الصغير الشأن يستوى مع الامبراطور ما دام الوعى هو العنصر المشترك بينهما .

ولا تهم التجارب . إن التجارب تخدم الانسان وقد لا تخدمه . وهى تخدمه عندما يكون على وعى بها ، وإلا فهو لا يحسها ، وهى لا تهمه .

وعندما يفشل الانسان ففشله ليس حكما على الظروف الذى أدت إليه ، ولكن فشله هو حكم عليه هو نفسه .

ولسوف أختار بشراً ، من الحياة ، يهدفون إلى إطالة أنفسهم ، أو أنى أراهم يطيلون فى أنفسهم . وسوف أتحدث الآن عن عالم الفكر فيه كحياة البشر ، لا مستقبل له ، وكل ما يستحث الانسان على العمل أو الحماس هو فعل أو هدف يستخدم الأمل لصالحه . أما الفكر ، الذى لا أمل له ولا هدف ، فهو فكر عقيم . وفى دنيا اللامعقول تقاس قيمة الفكرة أو الحياة بمقدار ما فيها من عقم .

* * *

دون جوان

ولو كان الحب هو كل شىء فى الحياة لكانت الحياة شيئاً سهلا ميسوراً ، لكن الانسان كلما أحب كلما نمى الأبسورد فى قلبه وترعرع . ولقد كان دون جوان ينتقل من امرأة إلى امرأة ، وليس انتقاله هذا عن نقص فى شعور الحب تجاههن ، ولم يكن دون جوان صوفياً يسعى خلف الحب الكلى ، لكنه كان ينتقل من امرأة إلى امرأة لأنه كان يحب كل واحدة نفس الحب وبنفس العاطفة والحماس وبكل كيانه ، فكان لذلك يكرر غزوه وتجربة حبه ، وكانت كل امرأة تريد أن تمنحه ما لم تمنحه إياه الأخريات . وكن على خطأ ، فنجاحه فى كل مرة ، وإتيانه للجديد الذى لم يجربه مع الأخريات فى كل مرة ، كان هذا يدفعه إلى إعادة التجربة سعياً وراء التكرار . وكانت إحداهن يحدث أن تهتف به قائلة «ها أنذا أخيراً نجحت فى إعطائك الحب » .

فهل ندهش لو تخيلنا دون جوان يضحك على هذا ؟ على هذه «الأخيرة» ؟ ويقول لها « دعك من هذا واعطينى التجربة من جديد »

وإذن يكون السؤال هو : ما الذى يجعلنا لكى نحب كثيراً أن نحب قليلا ؟ .

* * *

هل دون چوان شخصية حزينة ؟ غير محتمل . سأقرب الأسطورة من بعيد . إنه ضحوك ، غاز ، وقح ، لعوب ، محب المرح ، وكلها صفات مريحة ومرحة . وكل إنسان صحيح البدن يميل إلى زيادة إحساسه بالصحة ، وهكذا دون چوان . وعلاوة على ذلك فإن الحزانى من الناس لهم سببان لذلك : فإما أنهم لا يعرفون أنهم حزانى ، وإما أنهم شخصيات مؤملة تنتظر شيئاً . وكان دون چوان شخصية من الشخصيات المحيطة علماً بنفسها ، ولم يكن يؤمل فى شىء . والمتأمل فيه يتذكر هؤلاء الفنانين الذين يعرفون حدود أنفسهم فلا يتعدوها ، وعندما لاينتجون إنتاجهم الروحى يتمتعون بحياتهم كالسادة . وهذه هى العبقرية الحقيقية ، والذكاء الذى يعرف حدوده . ولم يعرف دون چوان الحزن حتى وافته منيته البدنية ، أو حتى بلغ حدود الموت البدنى .

إن دون چوان يعرف اللحظة ، وتنطلق ضحكته فنسمعها ونغفر له كل شىء بسببها ، لكنه كان يحزن فى الوقت الذى يؤمل فيه فى شىء ، فإذا صادف اليوم امرأة عرف على شفتيها طعم المعرفة الوحيدة التى يحس فيها بالراحة والمرارة معاً . المرارة ؟ لأنه لايحس بنفسه كاملا على فمها ، وهو لذلك يحس السعادة ويطعمها !

ومن الخطأ أن نرى فى دون چوان شخصية قد هزتها من الداخل أسباب دينية ، لأنه لا يرى فى الدنيا ماهو أكثر خداعاً من أن نؤمل فى حياة أخرى . وهو يدلل على اعتقاده هذا بمقامرته بهذه الحياة الأخرى ، يقامر بها مع السماء نفسها . وهو لا يعرف هذا السبق الدينى ولا عجز المتدينين مثلما كان فاوست عندما اعتقد فى الله فباع نفسه للشيطان .

لكن الأمر بالنسبة لدون چوان أبسط من ذلك . إن « بورلادور » يرد على التهديد بالحرق فى الجحيم قائلا : « كم تقرزنى ! » ما شأنى بما بعد الموت ؟ وكيفما عشت من أيام فى الجحيم ، أليس الجحيم أبديا ؟ فأى عدد من الأيام المتشابهة يتوالى ويتكرر بلا انقطاع ! وإذا كان فاوست يجرب متع الدنيا ويتركها الواحدة بعد الأخرى فما ذلك إلا لأنه يزهد فيها ، حتى تمام زهده النهائى بالنفى فى الله . لكن دون چوان عندما يترك امرأة إلى امرأة أخرى ، فما ذلك لأنه زهد فيها ، وإنما لأنه وجد امرأة جديدة يتمناها ويرغب فيها ، فهو يترك الأولى للثانية ، بحثاً لا زهداً .

وهذه الحياة ترضى كل رغبة من رغباته ، وليس أسوأ لديه من أن لا يحقق رغبة منها . فياله من مجنون عاقل ! أما من يعيشون على الأمل فهم يزهدون فى دنيانا . إنهم يبدأون بالتعاطف وينتهون إلى الكرم ، ويبدأون بالود وينتهون إلى الصمت . إن الود يصمتهم . ويبدأون بالتواصل ، والتواصل يحتاج إلى الشجاعة ، والشجاعة منهم وحدهم ، فهى شجاعة من طرف واحد ، قد تودى بهم ، وعندئذ يقولون عنه « كان ضعيفاً مثالياً ، أو قديساً » ، فأى عظمة هذه التى تحط من شأننا ! إننا لسنا فى حاجة إليها .

* * *

إن الناس تضايقهم خطب دون چوان وما يقوله عن كل النساء ، لكن الباحث وراء حجم غرامياته لا يهمه إلا صدق هذه الكلمات . ماذا نفيد من التقليل من شأن كلمات ظلت من يوم وفاته حتى الآن لا تموت ؟

ثم إن دون چوان والمرأة التى يغازلها ، ما كانا يهمهما الكلمات . كانت المرأة لا تهتم لما يقول ، بل كانت تهتم بمن يقولها . ما كانت تنصت لها ، بل كانت تصغى للصوت الذى يحملها .

وماذا كان يهم دون چوان من الأخلاق ؟ إنه ليس « مانارا » الذي كتب عنه « ميلوس » ، والذي لعن نفسه لأنه اشتهى ، وانتهى من خلال الشهوة واللعنة إلى القداسة : أن صار قديساً . لكن دون چوان يتحدى الجحيم ، يتحدى غضب الله . لا جواب لديه لغضبة الله إلا بأن يرفع شرفه هو نفسه ، كإنسان ، عالياً كالعلم ، مقابل علم الله أو غضبته . إنه يقول للكوماندور : « وهل أحافظ على وعدي لأني من الفرسان ؟ » .

وكذلك ما كان من الممكن أن نحكم عليه بأنه لا أخلاقي . ما كان دون چوان لا أخلاقياً ، وإنما كان من هذه الناحية كغيره من الناس ، له ما يحبه ومايكرهه . ولن نفهم دون چوان إلا إذا تعرفنا فيه إلى الرمز الذي يرمز إليه . وهو رمز عادي . إنه الغاوي ، الذي يغوي النساء . وهو الشهواني . ولم يكن إلا واحداً عادياً من هؤلاء . الاختلاف الوحيد بينه وبين هؤلاء أنه كان يعي حقيقته ، وهذا هو سبب كونه أبسوردياً . ومن اكتشف في نفسه هذه الصفة ، غوايته للنساء ، واطمأن إليها وارتاح فيها ، لن يتغير مهما كان ، فالغواية هي موقفه ووضعه في الحياة . ونحن لا نتغير ، لا تتغير مواصفاتنا في الحياة . إننا نتغير فقط في الروايات عند ما يريد لنا المؤلف أن نتغير . ونحن نتغير فيها ربما إلى الأحسن . إننا نتغير في الروايات فقط نوعياً ، لكن دون چوان لا يتغير ، وإنما هو يتحرك من مغامرة وتجربة إلى مغامرة وتجربة أخرتين ، أما القديس فهو يرى فيها نوعاً لا حجماً . القديس يرى في الأشياء معاني جوهرية ؛ لكن الأبسوردي لا يرى فيها معاني بهذه الصفة . إنه لا يتوقف أمام الوجوه والعيون يحفظها ويختزن ملامحها، إنما يمر عليها عبوراً بلاتوقف، دائماً الزمن . إنه لايختزن إلا الزمن . هو جزء من الزمن . هو لا يجمع النساء ، وإنما يستنفد أعدادهن ويستنفد باستنفادهن فرص حياته . إن جمعهن ، أو تذكرهن ، معناه أنه يستطيع أن يعيش ماضيه ، لكنه لا يعيش

الماضى ، ولا يعيش الذكريات ، ولايعيش الحسرات ، كلها أشكال للأمل لذلك فهو يعجز عن التطلع إلى الصور .

* * *

فهل هو إذن إنسان أنانى ؟ ربما . لكننا يجب أن نتفاهم ، ولأقل لك إن هناك من خُلقوا لكى يحبوا ، أو أن هذا ما كان سيقوله دون چوان نفسه لو أننا سألناه هذا السؤال . لكنه ما كان سيقول هذا الذى قلته مثلما قلته ، بل كان سيختار كلماته المعبرة بطريقته المعبرة ، لأن الحب الذى نحن بصدده هنا ليس هو الحب العادى ولكنه حب قد تلبسته أوهام الأبدية .

ولقد قال لنا أهل الذكر أنه لا وجود لعاطفة بلا صراع . ويوم أن يوجد هذا الحب الذى لاصراع فيه فهو فى الموت وحده ، ونحن إما أن نكون « ورذر » أو لا نكون شيئاً .

ثم أن هناك عدداً عديداً من الطرق لارتكاب الانتحار . وإحدى هذه الطرق هى أن نتناسى أنفسنا . وكان فى وسع دون چوان أن ينتحر . أن يذيب نفسه فى شىء . لكنه كان يعرف أن الانتحار ليس هو المهم ، وأن من يتنكبون حياتهم وراء حب عظيم يثرون أنفسهم بحبهم ويفقرون فى نفس الوقت من يقع عليه حبهم .

إن الأم أو الزوجة المحبة تغلق قلبها على حبها . إنها تغلقه دون العالم. تختفى من العالم فى حبها . إنها تذيب نفسها فى عاطفة واحدة ، وفى مخلوق واحد ، وفى وجه واحد . إنها تضيع ، يلتهمها الآخر ، هذا الواحد . لكن دون چوان يحب هذه ، ثم يحب تلك . إنه قبل أن يتردى فى الواحد الآخر يتجه بكيانه إلى الثالث ، فهو يتحرر من الآخر فى الثالث ، وهكذا إلا مالا نهاية . وتتبادله كل الوجوه فى العالم . وتبادُلها يرعشه . وهو يتبادلها لأنه يدرك بذاته أنه فان . لقد اختار دون جوان أن يكون عدماً .

إننا نسمى الحب حباً ، ونعرفه بأنه الشىء الذى يربطنا بمخلوقات معينة ، تهدينا فى ذلك نظرة عامة لدى الناس كلهم ، المسئول عنها الكتب والأساطير .

لكن الحب عندى هو هذا المزيج من الرغبة والود والذكاء ، الذى يربطنى إلى هذه أو تلك من المخلوقات . وهو مزيج يختلف من شخص لآخر . وإذن فلا يحق لى أن أجمع كل تجارب الآخرين ، على اختلافهم واختلافها ، تحت اسم واحد .

إننى لا أستطيع أن أوحد تجربة الحب . والأبسوردى لا يستطيع ذلك ، ومن ثم فهو يضاعف ما لم يستطع توحيده ، بأن يكرره ، يزيده عدداً . وفى تكرارة له يكتشف طريقة فى الوجود يحرر بها نفسه ، ويحرر بها كل من يقاربه . والحب عنده ليس أخلاقيا . لا أخلاق فى الحب . إنما الحب حب عند مايدرك أنه قصير الأمد ، وأنه فريد . وتصنع كل هذه الميتات ، وكل هذه الولادات من جديد ، فى تجمعها ، زهرة حياة دون جوان . إنها تزهر حياته . إنها طريقته فى العطاء وفى التألق . لكن هل أستطيع فعلا أن أتحدث عن الأنانية ؟

إننى عند ما أصل إلى هذه النقطة أذكر كل من يصرون على ضرورة عقاب دون چوان ، عقابه عقاباً دنيوياً وعقاب آخرة . والعقاب الدنيوى هو أن يعيش حتى يعمر ويعانى الشيخوخة بما يستتبعها من أمراض وأرزاء . لكن انساناً فى وعى دون چوان ما كان يدهش لحلول الشيخوخة . إن الشيخوخة لا تفزعنى . على العكس إن الشيخوخة جميلة ، ولكل مراحل العمر نواحى جمال . وفى أثينا كانوا يصنعون للشيخوخة معبداً ، وكانوا يأخذون الأطفال إليه زائرين متبركين . وقد يضحك الناس من المسنين . إن الشيخوخة تضحكهم . لكن دون چوان ما كان يأبه بضحكاتهم ، فكلما ضحكوا منه كلما برز عليهم وشمخ . لذلك تنتفى هذه الصورة لدون چوان

مع صورته التى رسمها الرومانسيون عنه ، فلا أحد يريد أن يضحك على هذا الشيخ المسكين الشقى دون چوان . إنهم على العكس يرثون له ، بل ربما كانت السماء نفسها تغفر له وتسامحه ، لكن دون چوان لا عليه من هذا كله . إن عالمه ، كجزء من قوامه فيه السخرية منه — من دون چوان — أن يسخر الناس منه . وهو يعتبر أن السخرية منه أمر طبيعى . هذا شرط من شروط اللعبة . وتقوم نبالة دون جوان على تقبله لكل شروط اللعبة . وعلى كل فهو لا يعتقد فى العقاب ، ويؤمن بأنه على صواب فيما يذهب إليه. إن كل هذا هو قدره ، والقدر ليس هو العقاب ، ولأنه يتقبل قدره ولا يعتقد أن ما يصيبه من أذى هو عقاب ، فهذا هو جرمه . إنه مجرم لأنه يفعل هذا الذى يفعله ، ولهذا السبب يستنزل رجال الله على رأسه كل صنوف العقاب . لكن دون چوان يمضى فى طريقه ويحصل المعرفة بلا أوهام ، معرفة تنفى كل ما يؤمن به رجال الله أنفسهم . إن طريق معرفته هو طريق الحب والامتلاك ، الغزو والاستنفاد . ويقف دون چوان كأعدى أعداء الله . إنه عدوهم بتجاهله لهم . ولقد قص علينا أحد المؤرخين أن « البولادور » الحقيقى مات مقتولا . قتله الرهبان الفرنسيسكان وقد أرادوا أن يضعوا حداً لكفر دون چوان وآثامه . ثم أعلنوا على الملأ أن السماء قد أردته . لكن أحداً لم يستطع أن يعرف إن كانت السماء هى التى صعقته أم أن غيرها هو الذى قتله . لكنى دون أن أمعن فكرى طويلا أستطيع أن أقول إن هذا الذى يقوله المؤرخ يبدو منطقياً . ولو توقفنا هنا وفكرنا قليلا لوجدنا أن دون چوان ، طالما هو حى يعيش ، فهو برىء ، وعندما مات أسقطوا عليه الذنب ، حتى صار ذنبه أسطوريا .

وما الذى يعنيه كذلك وجود الكوماندور الحجر ، هذا التمثال البارد الذى تحرك ليعاقب الدم والشجاعة اللذين جرؤا على التفكير ؟ إن كل

قوى العقل الأبدى ، والنظام ، والأخلاق فى صورتها العالمية ، وكل العظمة الأوروبية التى لإله يتأهب للغضب ، كلها قد تجرّمت فيه . ولا يرمز ذلك الحجر الضخم الذى لا روح فيه إلا إلى القوى التى نفاها دون چوان للأبد .

هذه هى كل رسالة الكوماندور التى لا رسالة له بعدها . إن الرعد والبرق ليعودان إلى السماء الزائفة بمجرد دعوتها لهما . أما المأساة الحقيقية فهى تجرى بعيداً عنهما تماماً . وإنى لأميل إلى تصديق أسطورة هذا المكابر ، فى ضحكته التى لا يضحكها إلا الرجل المتمتع بالصحة ، وهو يتحدى بها إلهاً لا وجود له . وأعتقد علاوة على ذلك أن دون چوان فى تلك الأمسية ، عندما كان ينتظر الكوماندور فى غرفة « أ نّا » ، أن الكوماندور لم يحضر ، وأن الكافر لابد أن أحس بعد منتصف الليل المرارة البشعة التى يتسم بها خصومه الواجدين أنفسهم على صواب . وإنى لأقبل حتى القصة التى تروى عن حياته ، والتى تقول بأنه دفن نفسه فى أحد الأديرة ، ليس لأن جانبها الدينى يبدو محتملا ، فأى حاجة له إلى الله ؟ إنما لجوءه إلى الدير يرمز إلى الأبسورد الذى يغلف حياته ، فهذه النهاية هى النهاية المقبضة لوجود كان مداره كله النزوات ذات الأمد القصير ، وأبسط ما ينتهى إليه الانغماس فى اللذات هو هذا الاتجاه العلوى ، فالانغماس فى اللذة أو تنسكها كلاهما صورة لشىء واحد هو الانشغال بها . وأية صورة شبحية يمكن أن تكون لهذا الرجل أكثر من هذه الصورة ؟ لقد خانه جسده ، لم يمت فى وقته فعاش الكوميديا ينتظر النهاية ، وجهاً لوجه مع إله لا يحبه ، يخدمه كما يخدم الحياة ، راكعاً أمام الفراغ ، ماداً ذراعيه نحو سماء لا يخاطبها بكلام بليغ لأنه يعلم أنه كلام بلا عمق .

إنى لأتصور دون چوان محبوساً فى زنزانة أحد الأديرة الأسبانية الضائعة فوق أحد التلال ، متأملا فى لا شىء . لا يفكر فى أشباح غرامياته التى راحت ، ناظراً إلى هناك ، من خلال شرخ فى الحائط الذى لوحته

الشمس ، إلى سهل أسبانى غارق فى الصمت ، إلى الأرض التى لا روح لها والتى يتعرف فيها إلى نفسه .

أجل ، فعلى هذه الصورة الخلابة والحزينة تسدل الستار ، معلنة النهاية ، التى انتظرها والتى لم يطلبها ، النهاية الأخيرة التى لا نهاية بعدها .

* * *

الدراما

يقول هاملت : « إنى أريد مسرحية ، بها أمسك ضمير الملك » . وكلمة « أمسك » هى الكلمة التى نريدها ، لأن الضمير يتحرك بسرعة أو ينسحب داخل ذاته ، ولن نمسك به إلا إذا أمسكنا به من جناحه وهو طائر ، فى اللحظة التى يهم فيها توا بالتحليق .

والرجل العادى لا يمسك بالضمير ولا يدرك لذة الإمساك به ، إنما على العكس يريده أن يولى ويدبر . إنه غير مهتم إلا بنفسه وبإمكانياته . ومن ثم فهو يهتم بالمسرح ، بالعرض ، حيث تعرض عليه حيوات كثيرة وأقدار ناس فيستمتع بمشاهداتها ، بالشعر الذى فيها ، لكنه لا يحس الأسى لها . هنا نتعرف على الرجل الذى لا يفكر ، والذى يؤمل ويسعى خلف أمل فى الحياة .

أما الأبسوردى فهو يبدأ من حيث ينتهى الأخير . لذلك فهو لا يقبل على المسرح ، إنما هو يريد أن ينفذ إلى المسرحية لا أن يشاهدها . إنه بدخوله إلى كل تلك الحيوات مجربا لها فى تنوعها ، يكون كأنه يمثلها جميعا . ولست أدعى أن هذا هو الشأن مع كل الممثلين ، وأنهم جميعا أبسورديون ، لكنى أقول إن قدرهم هو القدر الأبسوردى الذى قد يعجب ويجذب إليه القلب الصافى لأى إنسان . هذا ما يجب أن نكون متفقين عليه قبل أن ننتقل إلى النقطة التالية .

إن مملكة الممثل هى الشىء « الطيارى » . وهى مملكة الشهرة التى سرعان ما تنتهى . إن قيامها وانتهاءها قصير الأمد . لكن قد تقول إن كل شهرة مصيرها للزوال السريع . وكان سيريوس يقول عن أعمال جوته أنها ستتحول إلى تراب فى خلال عشرة آلاف سنة ، وسينسى الناس اسمه . وربما كان هذا دافعنا إلى أن نوجه اهتماماتنا إلى الشىء المؤكد ، بمعنى أن نهتم بما فى أيدينا لا بما فى الغيب وفى يد الأجيال القادمة . أن لا نسعى خلف الشهرة ، بل نحاول الإمساك بما هو فى أيدينا . وأقل الشهرات خداعا لنا هى شهرة أن نعيش ، أو أن نميش الشهرة . ومن ثم يكون الممثل قد اختار بمهنة التمثيل شهرة مزدوجة ، شهرة أن يكون محل اعتبار الغير ، وأن يعيش الشهرة . وهو إذ يدرك أن كل شىء فان ، وأن مصيره للزوال يوما من الأيام ، يعمل طبقاً لإدراكه ، ويستخرج نتائج تسير عليها حياته . وقد ينجح الممثل أو لا ينجح ، لكنه بموته لن يترك لنا شيئاً سوى صورة ، لكن لا شىء مما كانه هو نفسه . لا شىء من حركاته أو فترات صمته أو حين يشهق أو يلهث بالحب .

أما الكاتب فحظه أحسن ، لأنه قد يأمل أن يتذوقه الناس ، وحتى إذا لم يتذوقوه فقد ترك شيئاً يدل عليه . أما الممثل فلا شىء فى المستقبل يعزيه ، وهو لا يهتم إلا بالحاضر ، وشهرة الحاضر ، فإذا وجد أنه غير معروف فمعنى ذلك أنه لا يمثل ، وهو إذ لا يمثل فإنه يموت مئات المرات ، مع كل شخصية كان يمكن أن يمثلها ويبعث فيها الحياة .

* * *

ويلعب الممثل دور « إياجو » أو « السكست » أو « فيدرا » أو « جلوستر » فى ثلاث ساعات . إنه يبعث الحياة فيهم ويميتهم فى زمن محدود موقوت ،

على خشبة مساحتها خمسون ياردة مربعة . فإذا كانت هناك طريقة تصور الأبسورد تصويراً فائقاً كهذا التصوير وفى مدة ترمز إلى تفاهة الزمن فيه فهو تمثيل الممثل . وبعد المسرح قد نرى الممثل نفسه وهو يتمشى فى أحد المحلات . كان منذ دقائق يمثل حياة وموت فلان ، والآن هو يتمشى .

إذن ربما كانت الحياة حلم . وسوف يمضى هذا الممثل ويأتى آخرون . وبدلا من الشخصية التى كانت تزأر طالبة الثأر سوف لا نرى إلا البطل الذى يعذبه عدم اليقين . لسوف يعبر القرون ويختاز العقول ، وسوف يقلد الناس كما كانوا وكما هم . إنه يسافر عبر الزمن ، ويسافر عبر الناس . إنه هو أيضاً مسافر يشبه أبسورديا آخر هو المسافر . إنه مثله يستهلك شيئاً ، ودائما فى حركة . إنه مسافر عبر الزمن ، وهو المسافر المطارد ، الذى تطارده الأرواح . وإذا كان يمكن أن تجد أخلاقية الـكم مكانا لها ، فهو هذا المـكان الصغير ، المسرح . ولا أستطيع أن أحدد مدى ما يمكن أن يستفيده الممثل من أدواره ، ولا يهمنى أن أعرف الجواب ، لـكن المهم أن نعرف أنه يتقمصها ، وأن تقمصه لها يصل إلى حد الامتلاء بها ، حتى لتفيض على الزمن والمـكان اللذين ولد فيهما . وقد تصحب الممثل بعض شخصيات من يمثل أدوارهم ولا يستطيع التخلص منهـــا ، حتى ليتناول كأسه بالطريقة التى كان يتناولها بها هاملت ، وإذن فلا تفصله عن شخصياته مسافة كبيرة .

وهو يؤكد فى كل شهر وفى كل يوم أنه لا حدود بين ما يطلبه الإنسان وما يكونه . وهو يريد دائما أن يصور ما يريد تصويره أحسن تصوير .

وإذن فالمظهر يخلق الـكينونة ، بمعنى أن ما أريد أن أظهر به يخلق ما أكونه فعلا . وهذا هو فنه — أن يمثل ، أن يسقط نفسه فى أعماق الحيوات التى ليست حيواته ما أمكنه ذلك . وفى النهاية تتضح طريقته :

أنه بتمثيله يعطى نفسه كلية للعدم ، بأن يكون هذه الشخصية وتلك وتلك وتلك ولا يكون أحداً منها؛ إنه بالكثرة يكون العدم . وسوف يموت فى خلال ثلاث ساعات تحت القناع الذى تلبّسه اليوم. وعليه فى خلال ثلاث ساعات أن يجرب ويعبر عن حياة بأكملها ، وحياة ليست ككل الحيوات ، وإنما هى حياة فريدة . وهذا هو ما نعنيه عندما نقول إنه يفقد نفسه كى يجدها من جديد . وهو يسافر فى هذه الثلاث ساعات خلال الحارة المسدودة النهاية التى يقطعها المتفرج فى الصالة خلال رحلة العمر كله .

* * *

ومادام الممثل يقلد الوقتى والفانى فإنه يدرب نفسه حتى الإتقان ، إتقان الظواهر . وليس المسرح إلا التعبير عن القلب ووصال القلوب الأخرى عن طريق الحركات ومن خلال الجسم — أو من خلال الصوت الذى هو تركيبة من الجسم والروح معاً .

وتقتضى قواعد فن المسرح تكبير كل شىء وترجمته بالجسد ، فإذا اقتضى الدور من الممثل أن يحب كما يحب الناس فى الحياة ، وأن يستخدم لغة القلب ، وينظر كما ينظر الناس متأملين الحياة ، فعليه أن ينسجم حديثه مع مايقضى به دوره ، فإذا كان عليه أن يصمت فعليه أن يصمت إلى حد أن يكون لصمته صوت يسمعه النظارة ، لأن الحب لا يجعل الكلام مجرد كلام ، ولكنه يثرى الكلام ويرفع طبقته الأدائية ، ويحرك البدن حتى ليتحرك حركة تسر العين ، فالجسم هنا هو كل شىء ، والجسم هو الملك ، ولا يمكن أن يكون فى وسع أى ممثل أن يصير « مسرحياً » ، فالمسرحة كلمة فيها الكثير من الجمال والكثير أيضاً من الأخلاق ، وهكذا ينفخ الممثل فى صورة الشخصيات التى يمثلها ، لأنه يطلقها من صمتها ، ومن خوفها وضمورها ، ويكسر الهالة التى تغلف روحها . ويدفع بالعواطف لتتفجر وتفصح عن نفسها . وإنى لأتحدث هنا طبعاً

عن الدراما العظيمة ، هذه التى تعطى الممثل فرصة تحقيق قدرته البدنى كاملا . خذ شكسبير مثلا . إن حركة البدن فيه هى التى تمسك بخيط الدراما ، وهى التى تفسر كل شىء ، وبدونها لن نجد لشكسبير دراما . لن يستطيع «الملك لير» أن يفى بوعده الذى قطعه على نفسه بجنونه ما لم تكن هناك هذه الحركة الوحشية التى نفت كورديليا وأدانت إدجار . لذلك فالحركة فى هذه المأساة هى حركة يسيطر عليها الجنون . أربعة مجانين : أحدهم جُن بالتجارة ، والثانى بالقصة ، والثالث والرابع بأن تعذبا — أربعة أجساد قد مرضت ، أربعة جوانب مختلفة لحالة واحدة . ولا يعمل الجسد فقط عن طريق الحركة ، بل عن طريق الماكياج والأقنعة ، وهى أدوات تزيد من قوة تعبير الوجه ، بالإضافة إلى الملابس التى تغالى فى وصف صفات الشخصية — وإذن فعالم المسرح كله يضحى بكل شىء لقاء المظهر ، وهو عالم خلق أساساً للعين . وأنا حينما ألعب إياجو أفهم دوره ، فالمعرفة التى يمكن أن أحصلها عن إياجو هى معرفة مصدرها ذلك البدن ، لن يكفينى أن أسمعه ، لأنى أدرك إياجو لحظة أن أراه ، وأنا أراه عند دخوله المسرح قبل أسمعه . والممثل الأبسوردى وهو ينتقل من دور لدور يحمل التكرار ، هذا الظل الغريب التلقائى الذى يتكرر من خلال كل بطل يمثله ؛ وحدة الصوت . إن الصوت واحد ، لكنه يكرر به شخصيات متعددة مختلفة . أرواح كثيرة جمعها كلها فى جسد واحد . وهذا هو الأبسورد المتناقض . إنه يريد أن يحصل على كل شىء ويعيش كل شىء ، ومحاولته محاولة يائسة ، وإصراره بلا جدوى . وما يناقض نفسه يرتبط معه مع ذلك . وهنا يلتقى العقل والجسد ، وقد أعيا العقل الفشل ، وعندئذ يستدير إلى رفيقه المخلص ، ويقول هاملت « مباركون هؤلاء الذين اختلطت دماؤهم وأحكامهم اختلاطاً لا مكان فيه لإصبع القدر يلعب به على نايهم ما يشاء من ألحان » .

***

لذلك كفّرت الكنيسة الممثل وأنكرت عليه أن يكون تجسيداً لنفي كل ما تعمل على تعليمه للناس . لعنت الحاضر الذى يمثله ، وانتصار بروتيوس فيه ، ولهوه بالأبدية ، وتفضيله للدنيا على الآخرة .

إن عقلا كهذا هو عقل قد حرم الخلاص ، فلا يمكن أن يكون هذا العقل هو عقل للحاضر مع أنه ينكر الحاضر فى سبيل المستقبل . وإذن لا يمكن أن يجمع هذا العقل بين الحاضر والمستقبل ، وبين الدنيا والآخرة . والعقل الذى يوجد فى « كل مكان » « ولكل زمان » هو عقل المكان وللزمان .

وعندما ماتت الممثلة الكبيرة « أدريين ليكوفريه » طلبت أن تعترف، وأن يباركها القسيس . لكنه عندما طلب منها أن تلعن مهنتها رفضت . ألا يعنى هذا أنها فضّلت حماسها الذى غلبها للتمثيل على الله ؟ ما كانت تسميه فنها أعطاها عظمة لم تنلها خارج أضواء المسرح . وكان هذا الدور الذى مثلته على سرير موتها هو أرق دور لعبته وأصعبه . إنه مأساة العمر : أن أختار بين السماء والإخلاص للمهنة ، أن أفضل ذاتى على الأبدية أو على فقدانها فى الله . مأساة العمر التى يلعب كل منا دوره فيها .

وكان فن التمثيل فنا تنكره الكنيسة ، وكل من يحترفه معناه أنه قد اختار الجحيم . كما كانت الكنيسة ترى فى الممثلين أعدى أعدائها .

ويرى الممثل أن أقسى شيء عليه هو أن يموت قبل الأوان ، لأن موته المبكر يعنى أنه لن يمثل ، لن يجتاز قروناً وتواريخاً ، ويجسد شخصيات ، وموته المبكر هو الحرمان من هذه المجموعة السابقة ، لكننا على أى حال لابد أن نموت . وإذا كان الممثل لا يعترف بالزمان ولا بالمكان، لأنه فى كل زمان وفى كل مكان ، فهو أيضاً لابد أن تترك يد الموت انطباعها عليه يوما من الأيام .

يقول الغازى الفاتح : « لاتفترض أنى لأنى أحب الحركة فعلىّ أن أنسى كيف أفكر . إنى على العكس أستطيع أن أحدد تحديدا تاما ما اعتقد، لأن ما أعتقده اعتقده عن رسوخ ، وأراه رؤيا واضحة موثوق فيها . واحذر كل من يقول لك « أنا من شدة معرفتى بهذا الذى أتحدث إليك به لدرجة أستطيع معها أن أعبر لك عنه » لأنه لو كان يعرفه حقا هذه المعرفة الأكيدة فذلك لأنه لا يعرفه ، أو أنه من فرط كسله توقف عند القشرة ولم يلج للداخل .

« إننى لست برجل الأقوال . ليست لدى آراء كثيرة . مافائدتها مادام الإنسان فى نهاية حياته ، يدرك أنه قضى سنين طويلة يبحث وينقب ولم يعثر إلا على حقيقة واحدة ولو أنصفتم لكفت هذه الحقيقة الواحدة حياتنا . وهذه هى الحقيقة التى عثرت عليها . أن الإنسان شىء تافه . وهو ماهو ، لا بمايقول بل بمايفعل . ولن أقول لكم كل شىء ، سأحتفظ بجزء لنفسى . لكنى اعتقد اعتقادا جازما أن كل من أدانوا الفرد أدانوه عن تجربة تقل كثيرا عن التجربة التى حكموا علينا من خلالها . إنهم يرون بذكائهم ما كان يجب أن يروه ، لكن العصر بأحداثه الجسيمة والدم والخرائب التى وقعت فيه غطى على كل ذلك ، وكان من الممكن للأمم القديمة ، وحتى بالنسبة للأمم الحديثة كذلك ، حتى أمم عصرنا الآلى ، أن توازن بين مصلحة المجتمع ومصلحة الفرد ، وتحاول أن تقرر أيهما يخدم الآخر ، لأنها كانت تقول بأن البشر يخلقون وفى طبيعتهم شىء يقرر ما إذا كانوا قد خلقوا ليَخدموا أو ليُخدموا . وكان هذا ممكنا لأنه لا المجتمع ولا الفرد كان قد اكتشف طاقاتهما .

« لقد رأيت عقولا زكية تعبر عن دهشتها لقاء الأعمال الفنية

العظيمة التى قدمها الرسامون الهولنديون الذين ولدوا فى عز حروب الفلاندر ، وصوفية المتصوفة فى سيليزيا الذين عاشوا خلال حروب الثلاثين البشعة . وعاشت هذه القيم الخالدة وتجاوزت الاضطرابات والحروب . لكن العالم لم يكتف بهذه القيم بل تقدم عليها ، وجاء رسامو اليوم لا يعرفون تكامل الرسامين القدامى ، وحتى لو كان لهم القلب الذى للخالق ، والذى لا يعمل بدونه ، أعنى القلب المغلق ، فلا فائدة لأن كل واحد منهم بما فيهم القديس نفسه ، قد جندوه ، وعرف الحرب والخنادق والصلاة أسفل الصلب ، وخسر الأبدى الذى فيه . وأنا نفسى لما أدركت أنى لن أستطيع أن أبقى بعيد عن زمنى قررت أن أكون جزءاً منه ، لذلك أقدر الفرد وأضعه فى منزلة عالية ، لأنه يبدو لى بلا حول ولا قوة مثيراً للشفقة والسخرية ؛ وأدركت أن كل القضايا الخاسرة . إنها تتطلب روحا مثلها ، تساوى الضياع الذى فيها والنصر الذى تلاقيه من آن لآخر . إن عالمنا يضج ألماً ، وألم العالم جعلته ألمى ، وفى نفس الوقت أدليت بدلوى فيه . وخيرت بين التاريخ والأبدى فاخترت التاريخ لأنى أحب اليقين ، إنى على يقين من التاريخ على الأقل ، فهل أستطيع أن أنكر هذه القوة التى تسحقنى ؟

« وقد يطول الزمن بالإنسان ، لكن فى يوم من الأيام سيقف ليختار بين أن يتأمل أو بين أن يفعل . وهذا هو ما يسمونه «أن تكون رجلا» . ويتمزق الإنسان فى الاختيار ، لكن القلب الجسور لا يتردد ولا يقف بين الاثنين مدى الحياة . إما أن يكون هناك إله وإما أن يكون هناك زمن . إما أن يكون هناك صليب وإما أن يكون هناك سيف . إن لهذا العالم معنى أكبر يتجاوز منغصاته ، وإلا فلا شىء حقيقى فى هذا العالم إلا مافيه من منغصات . ولابد أن يعيش الإنسان مع الزمن ، وأن يموت معه ، أو يروغ منه إلى عالم أكبر . وأعلم أن هناك من يستطيع أن يعيش الدنيا والآخرة معا ، وأن يعيش الدنيا ويفر من الآخرة . وهذا هو القبول ،

لـكنى أكره هذا التعبير ، وإذا أردت يوماً فإنما أريد الـكل وإلا فلا .
وإذا اخترت الفعل ، فلا تظن أن التأمل كالبلد الغريب بالنسبة لى ، لـكن التأمل لايمكن أن يعطينى كل شىء . ثم إنى صرفت التأمل عن التفـكير فى الأبدية ، فلم يتبق لى سوى الزمن . كل ماأريده هو أن أرى بوضوح ، بلا مرارة وبلاغثيان ، وغداً ستجند وسيأخذونك إلى الحرب ، والتجنيد لك ولى تحرير ، فيه لايفعل الفرد وحده شيئاً لـكنه يستطيع أن يفعل كل شىء ، وهذا هو السبب الذى من أجله أقدر الفرد تقديراً عالياً وأسحقه فى نفس الوقت . إن العالم هو الذى يستعبده ، أما أنا فأحرره . أعطيه كل حقوقه .

* * *

« ويعرف الغزاة أن الفعل فى نفسه بلاجدوى ، وأن ليس هناك إلا فعل واحد مجد ، وهو أن نعيد خلق الإنسان والأرض . وأنا لن أعيد صنع الناس ، لـكنى لابد أن أتصرف « كما لو كنت » سأعيد صنعهم ، لأن طريق الصراع يسير بى إلى اللحم ، فاللحم هو يقينى الوحيد ، أعيش عليه وحده ، والمخلوق هو موطنى ، لهذا اخترت أن أبذل هذا الجهد الضائع وأن أكون فى صف الصراع . هذا هو منطق العصر .

ولقد كانت عظمة الغازى عظمة جغرافية تقاس بمساحة الأرض التى يضمها إليه . لـكن معنى هذه العظمة تغير اليوم ولم يعد معنى العظمة هو الانتصار ، إن من يرفع صوته محتجاً عظيم ، ومن يضحى بلا فائدة عظيم ، وما من شك أن النصر لو جاء فنعم به ، لـكن نصر الغازى اليوم هو النصر الأبدى ، وهو النصر الذى لن أحرزه أبداً ، لأنى أقع فيه واصطدم ، وكل الثورات التى قامت ضد الآلهة تحققت ، من اول ثورة بروميثيوس ، أول الغزاة المحدثين . والثورات ضد الآلهة هى ثورات يطالب فيها الإنسان بمطالب ضد إرادة القدر ، أما ثورات الفقراء فهى ليست ثورات . إنها ذرائع . أما الثورة ضد الإله فهى أروع الثورات . إنى أضع فيها وضوحى

وسط ما ينفيه . أعلى من شأن الانسان أمام من يسحقه . وتتجمع حريق وتمردي وحماسي فى هذا التوتر ، هذه السيولة وهذا التكرار .

« أجل إن الإنسان هو نهايته ، وهو نهايته التى لا نهاية له غيرها . وإذا كان يهدف إلى أن يكون شيئاً فهو لن يكونه إلا فى هذه الحياة ، وإذا تحدث الغزاة قائلين إنهم سيتغلبون فأنا أعرف أنهم يقصـــدون أنهم سيتغلبون على أنفسهم . هذا هو مايعنونه وهذا هو مايجب أن تعيه . إن كلا منا أحياناً مايحس بنفسه متساوياً مع الإله ، ذلك لأنه فجأة يحس أن فى هذا اللحم الذى هو لحمه هناك عقل إنسانى فيه عظمة وروعة . وليس الغزاة من البشر إلا هؤلاء الذين يحسون أن بهم من القوة مايستطيعون بها أن يعيشوا على هذه المرتفعات واعين تماماً روعة السكنى هناك . والمسألة مسألة رياضية . إما زيادة وإما أقل . والغزاة هم القادرون على الزيادة ، لـكنهم غير قادرين على أزيد مايستطيعه الإنسان عندما يريد . لهذا لا يتركون أبداً البوتقة الإنسانية التى تغلى بالثورات . هناك يلتقون بما يحبون من فضائل ، بالإنسان وصمته . وفى هذا انهيارهم وغناهم — وليس هناك إلا ترف واحد بالنسبة لهم — العلاقات الإنسانية ، فلا شىء مهم فى هذا العالم إلا ماهو إنسانى وله معنى إنسانى . وثروة الإنسان هى فى وجوه البشر المهمومة، وإخوتهم المهددة، والصداقة القوية الطاهرة بين الرجال — كلها ثروات بشرية لأنها عارضة . بينها يعى العقل سلطاته وحدوده وعياً هائلا ، أى يعى كفايته . ولقد تحدث البعض عن العبقرية، لـكن ما أسهل الحديث عن العبقرية . إنما أفضل أن أتحدث عن الذكاء . الذكاء يضىء هذه الصحراء ويسيطر عليها ، ويعرف التزاماته ، وهو سيموت فى نفس الوقت الذى سيموت فيه الجسد . وهو إذ يعرف ذلك يعى حريته فى هذه المعرفة .

* * *

إننا لا نجهل أن كل الـكنائس تقف ضدنا . فمثل قلوبنا التى أحكمت ارتجتها كل هذا الإحكام لايمكن أن تعرف الأبدية . لـكن كل الـكنائس سواء كانت دينية أم سياسية لا دعوة لها إلا دعوة الأبدية . إنها لا تحفل بالسعادة ولا الشجاعة ولا العدالة . كلها مسائل ثانوية بالنسبة لها . كل ما يبشرون به هو مذهب ، ودعوتهم دعوة للاشتراك فى المذهب . لـكنى غير مهتم لا بالأفـكار ولا بالأبدية . إن ما اهتم له هو الحقائق التى أستطيع لمسها والإمساك بها بيدىّ . لا أستطيع أن أنفصل عنها ، لهذا فلن تستطيع أن تقيم شيئاً علىّ ، فلا شىء من الغازى يبقى بعده ، حتى ولا مذاهبه .

« وفى النهاية يأتى الموت . فوق كل شىء . ونحن نعرف أنه ينهى كل شىء ، ولهذا نرى المقابر الـكثيرة التى تنتشر فى أوروبا شيئاً كريهاً . والناس لايجهلون إلا مايحبونه ، والموت يثير تمردنا ويستهلك صبرنا . لابد أن نقهره هو أيضاً ،وكان آخر رجل من أسرة «كارارا» ، بعد أن صار وحده فى قصره فى بادوا ، وقد قضى الطاعون على أسرته وحاصره أهل البندقية ،كان يجرى فى أبهاء القصر الصحراوى صارخاً طالباً الموت. هذه طريقة من طرق إخضاع الموت . وإنها لشجاعة يتسم بها أهل الغرب (أوروبا) أن يبنوا مقابرهم على هذه الصورة من البشاعة ، فحيث يكمن شرف الموت أهال عليه الناس أقبح الأشـكال .

* * *

ولأكرر أننى لا أقصد من تقديم هـــذه الصور أن أقضى بأحكام نهائية ، فأنا لا أقدم أحكاماً . إنها مجرد اسكتشات تمثل أسلوباً فى الحياة ، فالعاشق والممثل والمغامر ، كلهم يمثلون الأبسورد . ولا يمثل هؤلاء وحدهم الأبسورد ، إنما يستطيعه كذلك الرجل الفاضل طاهر الذيل ، والموظف العادى ، أو رئيس الجمهورية ، حسب ما يختار لنفسه .

ليس على أى من هؤلاء إلا أن يعرف ولا يقنع شيئاً . وتوجد فى بعض المتاحف الإيطالية قطع من الستائر الملونة كان القسيس يمسك بها، ويغطى بها وجه المحكوم عليه بالإعدام ، ليخفى عنه منظر المشنقة ، فالقسيس كان يخفى وجه المشنوق ليباعد بينه وبين الواقع ، ليقفز به القفزة ؛ وهذه القفزة فى كل أشكالها ، فى اندفاعها نحو الإلهى أو الأبدى ، مستسلمة لأوهام الحياة اليومية أو أوهام الفكرة — كل هذه القطع من الستائر تخفى الأبسورد . لكن مع ذلك يوجد من الموظفين الماديين من لا يضع أستاراً فوق وجهه ، وهؤلاء هم الذين أقصدهم بكلامى .

إننى اخترت هنا الشخصيات الأقصى تطرفا ، ويمطيهم الأبسورد فى هذا المستوى سلطة ملكية . وهم أمراء بدون مملكة . لكنهم فى موقف أحسن من غيرهم : إنهم يعرفون أن ممالكهم وهمية . وهم بلا أمل ، لكن ذلك لا ييأسهم ، ولا يحاولون أن يكونوا أحسن ، إنما يريدون أن يعيشوا حياتهم .

وإذا كان الرجل « الحكيم » هو الرجل الذى يعيش على ما عنده دون أن يؤمل فيما ليس عنده ، فهؤلاء الأبسورديون حكماء . أحدهم غاز ، لكن مملكته العقل ، والآخر دون جوان فى المعرفة ، وممثل فى الذكاء . لكننا نستطيع أن نضيف إليهم آخرين ، غير منفصلين عن الزمن أو المنفى ، ويعرفون هم كيف يعيشون فى انسجام مع عالم بلا مستقبل وبدون ضعف . وهذا العالم الأبسوردى الذى بلا إله يسكنه ناس يفكرون فى وضوح وقد نفضوا أيديهم عن الأمل . ولكنى حتى الآن لم أتحدث عن أكثر الشخصيات أبسوردية ، وهو الخالق .

الخلق الأبسوردى

***

الفلسفة والرواية

إن كل هذه الحيوات التى تحيا فى هواء الأبسورد كان لا يمكن أن تستمر دون أن يكون لها فكر يعيش فى عمق وسيولة وينفث قوته فيهم . وهم يتحملون أبسوردية العالم حتى لكأن لهم شرف ميتافيزيقى يدفعهم إلى هذا ، وإلى الإخلاص للحياة رغم ما يقوم فيها من حروب غبية . وهم إذ يغزون أو يمثلون أو يتقلبون فى الحب من امرأة إلى امرأة ، أو يتمردون تمرداً لا مجديا ، إنما يؤكدون الإنسان الذى فيهم ، ويحيون احترامه لنفسه ولكرامته ، وهو مدبر إلى رحلة هو الخاسر فيها مقدما .

إذن فالمسأله أن نخلص لقواعد المعركة ، وإخلاصنا هذا يكفينا لكى تستمر عقولنا تعمل ، فلقد كفى هذا الإخلاص مدنيات كاملة ، ومايزال . والحرب لا يمكن إلغاؤها ، ولابد أن نعيشها أو نموت بسببها . ونفس الحال مع الأبسورد : إنها مسألة أن نتنفس به ، أن نعترف بما يعطينا من دروس ، وما يكسونا من لحم ، وبذلك تكون أسمى آيات فرح الأبسورد هو الخلق ؛ ولقد قال نيتشه : « الفن ولا شىء غير الفن . لدينا الفن . هو الذى سيحول بيننا وبين أن نموت من الحقيقة » .

والفن هو الفرصة الوحيدة فى هذا العالم التى يمكن أن تبقى وعينا

به . وأن نخلق معناه ، أن نعيش مرتين . أن نعيش الحياة الواقعية ، ثم نعيشها من جديد بالتكرار. بأن يمثلها الممثل ، ويغزوها الغازى ، ويقلدها كل أبسوردى ، يكررها ، ويعيد خلق الواقع الذى هو واقعه نفسه . وكل وجود إنسانى قد أعطى ظهره للأبدى هو وجود بالتقليد تحت قناع الأبسورد . والخلق هو أكبر تقليد للحياة .

والأبسورديون يبدوأون بالمعرفة ، ثم يجهدون ، ويتجه مجهودهم كله إلى فحص وتكبير وإثراء الجزيرة التى تعيش لفترة ثم يعدوها الزوال، والتى أرسوا عليها قواعدهم . لكن قبل ذلك كله لابد أن يعرفوا ، فحق الذين لا إنجيل لهم يقفون هم أيضاً على جبـــل زيتون . وهم فى وقوفهم لا يسقطون نائمين . المسألة عند الأبسوردى ليست مسألة تفسير وحل ، لكنها تجريب ووصف ، وكل شىء يبدأ معهم من اللامبالاة الواعية .

إن الوصف — هو أقصى ما يطمح إليه الفكر الأبسوردى . لقد وصل العلم إلى غايته فلم يعد يتأمل ويصور ظواهر الطبيعة العذراء الأبد . لكن القلب الذى ينبض فينا يعلمنا دوماً أننا عند ما نسر من رؤية مشاهد الطبيعة فإن سرورنا مصدره ليس عمق هذه المشاهد لكن تنوعها . ولا فائدة من تفسير ذلك ، ومع ذلك فالإحساس الذى تولده يستمر ويبقى ببقاء ما فى العالم من كمية مباهج .

وهنا ، عند هذه النقطة ، نستطيع أن نفهم مكانة العمل الفنى . إنه إعلان بموت التجربة ، وكذلك هو تضعيف لها . إنه نوع من التكرار الحماسى لأفكار قد نظمها العالم ، لكنه ليس رمزاً للأبسورد . إنه هو نفسه ظاهرة أبسوردية ، ونحن مهتمون بوصفها . وليس العمل الفنى مهربا يلوذ إليه صاحبه فراراً من مرض فكرى . وهو يدفع العقل إلى أن يخرج خارج ذاته ، ويواجهه بالآخرين ، مواجهة لاتضلله ، بأن تذيبه فيهم ، لكن لتطلعه على الحارة السد التى دخلها الباقون . ٥

ويكفى أن نلقى الضوء على بعض الأفكار المشتركة بين الخالق وبين المفكر لنتعرف إلى التناقضات الفكرية التى نجدها فى الأبسورد .

* * *

كانوا قديماً يقولون بتعارض الفن والفلسفة ، وهو قول لا صدق فيه لو أخذناه حرفياً . فلو قلنا إن هذا الاختلاف اختلاف فى طبيعة كل ، لكان قولا صحيحاً ، لكنه غامض لا يفصح عن حقيقة هذا الاختلاف . وفى رأيى أن الاختلاف الحقيقى هو أن الفيلسوف يوجد فى مذهبه ، بمعنى أنه منغلق على مذهبه . لكن الفنان يوجد لقاء عمله ، فى مواجهة فنه . لكن هذا الكلام مع ذلك يصدق على على شكل معين من الفن والفلسفة ، وهو مالا يهمنا هنا ، لأنه شكل ثانوى بالنسبة لما نحن بصدده ، فلا يوجد فنان منفصل عن عمله . ثم قالوا إنه لا يوجد فيلسوف قد وضع عدة مذاهب ؛ إنما هو مذهب واحد الذى يضعه الفيلسوف . وهو قول حق لأنه لن يبدع شيئاً واحداً بزوايا فكر مختلفة . ولا يوجد فنان لم يفكر تفكيراً مسبقاً فيما يبدعه قبل أن يبدعه ، لأن العمل الفنى هو كذلك بناء ، وكلنا نعرف كم يكرر الفنانون الكبار أنفسهم . والمفكر والفنان كلاهما يلزم نفسه فى عمله ، ويصير نفسه فى عمله .

ومن الضرورى أن نؤكد كبداية أن العمل الفنى الأبسوردى لا بد أن يتضمن فكراً فى أصفى حالاته سيولة . لكن لا يجب أن يظهر الفكر طافحاً فى العمل الفنى الأبسوردى ، فهو يختفى خلف العمل . إنه ينظم الذكاء فالعمل الفنى يولد من رفض الذكاء للعقل المادى . إنه دراما الذكاء ، لكنه دراما غير مباشرة ، ومثل هذا العمل لا يمكن أن يأتيه إلا فنان أبسوردى يعى هذه الحدود ، ولا يمكن أن يكون إلا فى فن لا يعنى فيه المادى إلا نفسه . وهو ليس النهاية والمعنى والعزاء عن الحياة ، فأن تخلق أو لا تخلق لا يغير من الأمر شيئاً . والمبدع الأبسوردى لا يهمه

ما يخلق ، فهو لا يضعه موضعاً عالياً ، بل إنه أحياناً ماينكره ، مثلما فعل « ريمبو » .

ونستطيع أن نرى فى ذلك تطبيقاً لقواعد الجماليات ، فالعمل الفنى يلتصق دائماً بالمدرج الإنسانى ، فهو أبداً العمل الذى يقول « الأقل » . وهناك علاقة معينة بين التجربة الكونية للفنان وبين العمل الذى يعكس تلك التجربة ، بين Wilhelm Meister وبين نضج جوته . وتكون تلك العلاقة مستهجنة عندما يهدف العمل الفنى إلى بسط العلاقة الكلية فى ورق سلوفان الأدب التفسيرى . أما عندمايكون العمل الفنى قطعة مقتطعة من التجربة ، قطعة تطايرت من الماس وفيها مافى الماس من بريق وتألق ، تكون التجربة تجربة مطلوبة ومستحسنة . وفى الحالة الأولى نجد التجربة مشحونة شحناً فوق طاقتها ، وتناقض الأبدى ، وفى الحالة الثانية نجد العمل الفنى خصباً مشرقاً بسبب ما فيه من تجربة متألقة ثرية . ومهمة الفنان الأبسوردى هى أن يحصل على هذه المعرفة المعيشية Savoir-vivre ، أن يعرف كيف يعيش . وهى معرفة تمكنه من تجاوز المعرفة العملية Savoir-faire أن يعرف كيف يعمل . ثم إن الفنـــان الأبسوردى الكبير هو البنى آدم العظيم الذى يعيش حياته عظيمة ، وبذلك تكون معايشة الحياة فى هذه الحالة تجربة وتفكيراً فى نفس الوقت ، وحينئذ يحتوى العمل الفنى على الشيئين معاً ، أو على الدراما الفكرية .

ولست أتحدث هنا عن الفنون الشكلية أو فنون الألوان ، التى يسودها الوصف وحده فى روعته المتواضعة ، فالتعبير يبدأ من حيث ينتهى الفكر . ونفس الشىء مع الموسيقى مع بعض الاختلاف ، فلوكان هناك فن من الفنون لا دروس فيه فهو فن الموسيقى الذى يرتبط بالعلوم الرياضية . والفنان الأبسوردى يجد هذه الفنون سهلة جداً ويعتبرها مجالاته . إنه يصول فى عالم الأنغام والأشكال .

لـكنى هنا سأتحدث عن فن يغريه كثيراً أن يفسر ، ويثريه الوهم آتوماتيكياً ، ويبدو أن الوصول فيه إلى نتيجة يشبه أن يكون حتمياً . هذا الفن هو فن الرواية ، وسنرى ما إذا كان الأبسورد يمكن أن يتخذه مجالا له أم لا .

* * *

إن التفـكير هو أولا خلق عالم (أو أنه تحديد عالمنا ، والتحديد هو نفسه خلق) . والتفكير يفصل الإنسان عن تجربته ، وفصله عن التجربة يكون بقصد اكتشاف شيء عام من زاوية معينة هي زاوية المفـكر ، هي ما يقضه هو نفسه ، وما يقول به عقله . وهذا الشيء العام يعطيه فرصة محو هذه المفارقة غير المحتملة .

والفيلسوف ، حتى لو كان هو «كانت» هو خالق ، له شخصياته ، ورموزه ، وحركته الداخلية وعقدته والنهاية . ويجعل فن الرواية من الفن شيئاً أكثر فـكرية من الشعر وفن المقال . وعند ما أقول إن فن الرواية يقف فى مستوى أعلى من مستوى الشعر والمقال لا أقصد أى رواية، ولـكنى أقصد أعظم الروايات ، فهناك عدد ضخم من الروايات السيئة . ووجود هذا العدد الضخم لا يجب أن ينسينا قيمة الروايات الجيدة ، وهى روايات لها عالمها ، ولها منطقها وأسبابها وحدسها وشروط قيامها ، ولها أيضا مستلزمات وضوحها [1] .

(١) ولو توقفنا لنفـكر فى هذا الأمر لاكتشفنا السبب فى وجود روايات سيئة ، فكل الناس يعتبرون أنفسهم قادرين على التفكير ، وهم فعلا كذلك ، إن عن حق أو عن خطأ . لـكن قلة منهم تعتقد أنها شعراء أو فنانين . إنهم لا يدخلون عالم الشعر ولا الفن ، لـكنهم دخلوا ميدان الرواية من يوم أن صار التفكير هو محتوى عالم الرواية ، لأنهم يظنون أنفسهم قادرين على إتيان التفكير كما قلت . على أن ارتياد الجماهير للرواية لم يسيء إلى الرواية كثيراً ، فهناك من الـكتاب من يجتهد فعلا لإنتاج الأحسن ، أما من يكتبون من الجماهير فهؤلاء لن يعمروا .

ولقد انتهى الـكاتب من أن يكون مجرد قصاص يحكى لنا قصصاً ، وصار خالقاً مبدعاً له عالمه ، وصار كبار الروائيين روائيين فلاسفة ، وهؤلاء هم عكس الـكتاب القصاصين . ومن الروائيين العظام ، على سبيل المثال لا الحصر : بلزاك ، وسارتر ، وملفيل ، ودستويفسكى ، وبروست ، ومالرو ، وكافـكا .

والروائى العظيم ، كما قلت ، فيلسوف عظيم ، وبدلا من أن يكتب فلسفته بالشكل المعتاد يكتبها بالصور ، لأن مبدأ تفسير نفسه لا يقنعه . وهو لا يريد أن يشرح نفسه ، لـكنه يريد أن يقدم عالماً من الظواهر ، ويؤمن بأن العمل الفنى هو نهاية وبداية فى حد ذاته ، وحصيلة فلسفة لم تشرح نفسها . إنه تصوير للفلسفة ، أو هو توصيل لها . وهو لا يكتمل إلا عند ما يتضمن هذه الفلسفة .

ويصدق على العمل الفنى الجيـــد القول الذى يقول بأن القليل من الفلسفة تباعد بين العمل الفنى والحياة .. بينما الفـكر الـكثير يصالحه مع الحياة . ومادام الفـكر غير قادر على ترقيق الواقع فإنه يحاول أن يقلده ، وفن الرواية الذى نناقشه هنا هو أداة هذه المعرفة التلقائية النسبية التى لا تنفد ، مثلها مثل الحب . ومن الحب يأخذ الخلق الروائى دهشة الحياة وإخصابها .

* * *

وأريد الآن أن أعرف ما إذا كان قبولى للحياة دون الإيمان بسلطة أعلى ، ولا اللجوء إلى سلطة أعلى ، يعنى أنى أستطيع كذلك أن أعمل وأخلق دون هذه السلطة الأعلى ؟ وما هى الطريقة إلى هذا التحرر ؟ فأنا أريد أن أحرر عالمى من أشباحه وأن أسكـنـه بحقائق من لحم ودم لا غير ، حقائق لا أستطيع أن أنـكر وجودها .

وإذا كنت سأختار اتجاها أبسورديا فى الخلق فعلىّ أن يكون اتجاهى وخلقى عفويين ويعيان عفويتهما . فإذا لم يمثل العمل الفنى مستلزمات اللامعقول ، ولم يحترمها ، ولم يصور المفارقة والتمرد ، ورضخ للأوهام ، وكان عملا يثير الأمل ويقويه ، فستنتهى عفويته أو مجانيته . ولن أستطيع أن أفصل نفسى عنه . وقد تجد حياتى معنى فيه ، لكنه معنى تافه . لن يكون العمل الفنى تمرينى الذى أمارسه فى الانفصال وفى الحماس اللذين يتوجان روعة ولا جدوى حياة الإنسان .

وفى الخلق الذى يكون فيه إغراء التفسير أقوى ، هل يستطيع الكاتب أن يقاوم ذلك الإغراء ؟

وفى العالم الروائى الذى يرهف فيه الوعى بالعالم الواقعى ، هل أستطيع أن أظل أميناً مع الأبسورد دون أن تضحى به الرغبة فى إصدار الأحكام ؟

وكل هذه الأسئلة والشكوك هى آخر معاقل الوعى الذى يخشى ما يعيه عن الحياة لقاء وهم الحياة ، فقد ينسى دون جوان أو الخالق أو الممثل أو أى من الشخصيات الأبسوردية أن ممارسته للحياة لا يمكن أن تسير دون وعى بسمتها المجنونة ، ثم يتعود على ذلك بسرعة ، مثله فى ذلك مثل الرجل الذى يريد أن يكسب مالا كى يسعد ، ويوجه الرجل كل جهده نحو كسب المال ، وينسى السعادة ، وتصير الوسيلة هى الغاية .

والغازى الذى يتوجه اهتمامه نحو تحقيق الطموح ناسياً أن هذا الطموح كان طريقه إلى حياة أكبر ، ودون جوان الذى يستسلم لقدره ويقنع بوجود كان النبل فيه يستمد أصوله من التمرد ، لهذين كان الأبسورد هو الوعى ، وهو التمرد ، لكن الوعى والتمرد تنوسيا ، ومن ثم لم يعد هناك أبسورد .

لقد استحالت الوسيلة إلى غاية ، وامتلأ القلب بالأمل والوهم والاستسلام ، والميل إلى الاستقرار ، والمسالمة ، وهو مايشبه الرضى الوجودى — فهؤلاء هم إذن آلهة الضياء وأصنام الطين . لكن طريقنا ليس هذا الطريق ، وإنما هو الطريق الأوسط الذى يؤدى بنا إلى تلمس وجوه الإنسان ، فالخلق الروائى يمكن أن يقدم لنا أفكاراً كثيرة عظيمة كتلك التى تقدمها بعض الفلسفات . وهنا أستطيع أن أقدم كمثال عملا روائياً فيه هذا الوعى الأبسوردى وله بداية واضحة ومناخ بين . وسوف تنيرنا نتائجه،وإذا لم يكن للأبسورد اعتبار فيها فسوف نرى الوهم الذى دخله والذى سبب ذلك . سأحلل فكرة من أفكار دستويفسكى الأثيرة ، وربما درست بعدها أعمالا أخرى ، لكنى هنا سأكتفى بدستويفسكى حيث عالج فكرته علاجا مباشراً وفى نبل وبعاطفة ، لو قارناه بالفلسفات الوجودية الأخرى التى ناقشناها هنا . وهذا الخط المقارن بين الاثنين يخدمنى ويوضح هدفى .

***

كيريلوف

يسائل كل أبطال دستويفسكى أنفسهم حول معنى الحياة ، وهم عصريون إذ يفعلون ذلك : فى أنهم لايخشون أن يسخر الغير منهم إذ يفعلون ذلك . هذه هى سمة العصر الذى نعيش فيه . إنه عصر المشاكل الأخلاقية ، مشاكل الحياة . لكن قبل ذلك كانت مشاكل العصر مشاكل ميتافيزيقية ، هذا هو ما يميز المفهوم الحديث للحياة عن المفهوم الكلاسيكى . ويطرح دستويفسكى مشكلة العصر الحديثة عرضاً حاداً يستتبع قيام حلول متطرفة ، فإما أن يكون الوجود مجرد وهم ، وإما أنه أبدى ، بمعنى أن تكون هناك

آخرة ومواصلة للحياة الدنيا ، فهو استمرار وليس نهاية . ولو كان دستويفسكي يشغل نفسه بالبحث فقط عن معنى الحياة لكان فيلسوفاً ، لكنه يصور النتائج التى تترتب على سؤال الانسان لنفسه هذه الأسئلة ، النتائج التى تترتب على حياته ، ولذلك فإن دستويفسكى فنان . ومن بين هذه النتائج يولى دستويفسكى عناية خاصة لواحدة منها ، وهذه النتيجة هى آخر النتائج ، وهى التى تأسر اهتمامه ، وهو يسميها الانتحار المنطقى فى كتابه « يوميات كاتب » . وفى ديسمبر سنة ١٨٧٦ يكتب دستويفسكى أسباب هذا «الانتحار المنطقى» ، مقتنعاً بأن الوجود الانسانى هو أبسورد مطلق لمن كان بلا إيمان فى وجود حياة آخرة ، وحينئذ فلا محيد لليائس من أن يصل إلى هذه النتائج . « مادمت فى الاجابة على أسئلتى عن السعادة يقال لى ، من خلال وعيى ، أنى لا يمكن أن أكون سعيداً إلا بانسجامى مع الأبدى ، الذى لا أستطيع تصوره ، ولن أستطيع يوماً من الأيام أن أتصوره ، فمن الواضح .. »

« ومادمت ، أخيراً من هذه الناحية ، أقوم بدور ممثل الاتهام والدفاع فى نفس الوقت ، المتهم والقاضى ... ومادمت أعتبر هذه الكوميديا التى تروجها الطبيعة شيئاً غبياً .. ومادمت لا أسمح لنفسى بأن تمتهن ، بأن ألعب دوراً فيها ... » . وبوصفى ممثل الاتهام والدفاع ، والقاضى والمتهم ، فإنى أدين تلك الطبيعة التى أوجدتنى كى أقاسى — إنى ألعنها وأطلب لها أن تنتهى مع نهايتى » .

وهذا الموقف الذى يقفه هذا المنتحر يضحكنى بعض الشىء ، فهو يقتل نفسه لأنه على المستوى الميتافيزيقى « متضايق » . وهو بمعنى من المعانى ينتقم ؛ معبراً بذلك عن تدليله على أنه « لن يكون » ... ونفس هذه الفكرة نجدها تتجسد بشكل قوى فى كيريلوف فى « الممسوسون » ؛ فهو أيضاً من دعاة الانتحار عن منطق . وكان كيريلوف يعمل مهندساً ،

وأعلن عن رغبته فى قتل نفسه لأن هذه هى « فكرته » . وهو يعنى من « فكرته » أنه يقتل نفسه من أجل فكرة ، وهذا هو الانتحار بمعناه السامى . ونتدرج مع كيريلوف فى عدة مشاهد حتى نصل إلى مرحلة التنوير التى نفهم فيها فكرة كيريلوف ، التى هى فكرة « اليوميات » . إنه يحس أن الله ضرورة ، وأنه لابد أن يوجد وهو يعلنها قائلا : « ولماذا لا ترى فى ذلك سبباً كافياً لقتل نفسك ؟ » . ويحوى هذا الموقف بداخله بعض النتائج الأبسوردية .

وهو لا يبالى بالحياة ، ويقبل أن ينتحر ، وهو إذ يفعل ذلك يجعل من حادثة انتحاره شيئاً يخدم قضية يحتقرها هو . « لقد قررت بالأمس أنى لن أبالى » . ثم يعد فعلته إعداداً نهائياً وكله تمرد يخالطه الإحساس بالحرية . « سأقتل نفسى لأؤكد ثورتى ، حريتى الجديدة البشعة » . وهكذا لاتصبح المسألة مسألة انتقام، لكن تمرد . ومن ثم يكون كيريلوف شخصية أبسوردية ، لكن مع التحفظ : لأنه يقتل نفسه . هـذا هو التناقض فى موقفه ، هذا التناقض الذى يفسره بطريقة واضحة تكشف عن السر الأبسوردى فى أصفى حالاته : إنه يريد أن يقتل نفسه ليصير هو نفسه إلهاً .

وهذا السبب الخفى الكامن خلف فعلة كيريلوف إنما هو سبب كلاسيكى ، لأنه إذا كان الله غير موجود ، فكيريلوف هو الإله . وإذا كان الله غير موجود فلابد أن يقتل كيريلوف نفسه ، وإذن فكيريلوف لابد أن يقتل نفسه ليصير هو نفسه إلهاً .

هذا المنطق هو المنطق الأبسوردى ، فالمهم هو أن ننزل الله إلى الأرض ونعطيه معنى أرضياً ، وهو ما يعنى « أنه إذا كان الله غير موجود فأنا نفسى إله » .

ولنلاحظ أن كيريلوف الذى يريد أن يقتل نفسه ، ويريد أن يصبح

إلهاً ، هو إنسان متمسك بالأرض ، فهو يؤدى التمرينات الرياضية صباحه ليحفظ على بدنه لياقته ، ويفرح عند ما يعيد شاتوف زوجته إلى بيته . وهو يرسم وجهاً يخرج لسانه؛ « لهم » على فرخ ورق ليروه بعد مماته ، فهو طفل وحساس ومنهجى ومتحمس وسهل الإثارة ، وليس فيه شىء من السوبرمان فيما عدا منطقه والفكرة المسيطرة عليه . لكنه من الناحية الإنسانية فيه كل شىء . وهو عندما يتحدث عن ألوهيته يتحدث بهدوء ، فهو مجنون ، وإلا فدستويفسكى هو المجنون . وتحدثه هذا الهادىء يدل على أنه لا جنون عظمة عنده ، ومن ثم فلا ينبغى أن نأخذ كلماته بنص معناها وإنما ينبغى أن نأخذها مأخذ كلمات الآلهة .

ويساعدنا كيريلوف نفسه على أن نفهمه حينما يجيب على أحد أسئلة ستافروجين ، فهو يقول له إنه لا يتحدث عن إله إنسانى . وربما اعتقدنا أنه يقول ذلك حتى لا نخلط بينه وبين المسيح ، لكنه فى الحقيقة يضم المسيح داخله . ويتخيل كيريلوف للحظة أن عيسى عند ما مات « لم يجد نفسه فى الجنة » ، فاكتشف أن معاناته وتعذيبه كان لا مجديا . وهو يقول « إن قوانين الطبيعة جعلت المسيح يعيش وسط الزيف ، ويموت فى سبيل الزيف » .

فالمسيح بهذا المعنى وحده يشخص الدراما الإنســانية كلها ، فهو الرجل الكامل ، مادام أنه الشخص الوحيد الذى حقق أقصى الحالات الأبسوردية تطرفا . إنه ليس الإله الإنسانى ولكنه الإنسان الإلهى . وهو مثله يمكن أن يُصلب ويضحى به ، و « يكون » لدرجة معينة . ولقد فكر فيما يمكن أن يعطيه القداسة ، واكتشفه «أنه الاستقلال» . وهكذا يبين المعنى الذى يهدف إليه كيريلوف « إذا كان الله غير موجود فأنا الله » ، وإذا صار هو الله فقد تحرر ، صار حراً فوق هذه الأرض ، لم يعد يخدم أى كائن آخر فانٍ . وإذا قلنا إن الله موجود فمعنى ذلك أننا

جميعاً نعتمد عليه ، وأن كل شيء يتوقف عليه ، وأننا لا يمكن أن نفعل شيئاً من دونه . وإذا لم يكن موجوداً فكل شيء يتوقف علينا نحن . وإذن فعندما يقتل كيريلوف الإله فهو يقف منه موقف نيتشه من إلهه ، كلاهما يقتله ليصير هو نفسه إلها ، وليحقق على الأرض ما وعد الإنجيل به المؤمنين في السماء .

لكن إذا كان قتل الإله ، هذا القتل الميتافيزيقي يكفي لإقناع صاحبه ، فلماذا يقتل أيضاً نفسه ؟ لماذا ينتحر ؟ لماذا يقتل نفسه تاركا العالم بعد أن حقق فيه الحرية ؟

هنا تناقض ، وكيريلوف يعي هذا التناقض لأنه يضيف إلى ما سبق أن قال « إذا كنت تحس « أنك » قيصر ، وأنك لا تفكر البتة في قتل نفسك ، فسوف تعيش مكللا بالغار » . لكن الناس لا يحسون ما يحس ، لا يحسون هذه « الأن » ، وهم يؤملون كما أمل بروميثيوس . يريدون أن لا يكونوا قياصرة ، يريدون غيرهم أن يأخذ بأيديهم يعظهم ويرشدهم . لذلك يريد كيريلوف أن يقتل نفسه لأنه يحب الإنسانية . يريد أن يهدى إخوته إلى طريق ملكي صعب المرتقى سيكون هو أول من يرتاده ، فهو هنا يقتل نفسه عن مبدأ . وهو إذ يقتل نفسه إنما يضحى بها . لكنه لو صلب فلن يضحى به . سيبقى الإنسان الإله ، مقتنعاً بموت بلامستقبل ، يخالطه حزن ملائكي . وهو يقول « إنني لست سعيدا لأني مضطر إلى أن أؤكد حريتي » . لكنه حالما يموت يستنير البشر ، وسوف يسكن هذه الأرض ناس كلهم قياصرة ، تكللهم هالات الغار الإنسانية . وسوف تكون طلقة الرصاص المندفعة من مسدس كيريلوف علامة اندلاع آخر ثورة . وإذن فليس هو اليأس الذي يستحث خطاه إلى الموت ، لكنه حب جاره من أجل الحب لا غير . وقبل أن يسدل الستار الدموي ينطق بالجملة القديمة قدم عذابات الانسان « كل شيء على ما يرام » .

وإذن تـكون فـكرة الانتحار التى عالجها دستويفسكى هى فـكرة أبسوردية حقيقية . ولقد ظهر كيريلوف فى شخصيات أخرى ألقت مزيداً من الضوء على أفـكار أبسوردية أخرى . مثلا ستافروجين وإيڤان كارامازوف ، كلاهما يعيش الأبسورد عملياً فى الحياة . وهما الشخصيتان اللتان يحررهما موت كيريلوف ، فلقد حاولا أن يكونا قيصرين ، وعاش ستافروجين حياة ساخرة ، وكلنا نعرف مدارها ، وأثار الـكراهية من حـوله ، ومع ذلك كان مفتاح شخصيته خطاب الوداع الذى كتبه « لم أستطع أن أحتقر أى شىء » ، فهو قيصر فى اللامبالاة . وكان إيڤان كذلك ، لـكنه يرفض التسليم بسلطات العقل الملـكية ، ويرد على أخيه عند مايقول له إنه لـكى يؤمن لابد أن يطأطىء من نفسه ، يرد عليه بأن مثل هذه المطاطاة شىء يحسه العار . ومفتاح شخصيته « كل شىء مباح » ، لـكنه يبيح لنفسه كل شىء وهو حزين . وتنتهى حياته نهاية طبيعية ، كأى قاتل لإله ، مثل « نيتشه » ، أكبر هؤلاء القتلة ، فى الجنون . لـكن المخاطرة التى ركبها ، والتى ركبها نيتشه مثله ، إنما هى مخاطرة تستحق أن يجربها كل انسان ، وعندئذ نواجه مثل هذه النهايات المأساوية فيتساءل العقل الأبسوردى : « لـكن ما نتيجة ذلك كله ؟ »

***

ما من كاتب حاول أن يعطينا عالم الأبسورد ويجعله عادياً لنا مثل دستويفسكى . لـكن ماهى النتيجة ؟ ثار عليه النقاد واحتجوا على مناقشاته حول الانتحار المدعم بالمنطق ، لكن دستويفسكى يقول فى « اليوميات » ، إذا كان الإيمان فى الخلود شيئاً ضرورياً هكذا للانسان (لدرجة أنه بدون هذا الإيمان يصل إلى مرحلة قتل نفسه)، فإن هذا الايمان لابد أن يكون لذلك هو الحالة العادية التى توجد عليها الانسانية .

وإذن يكون خلود الروح الانسانية أمراً لاشك فيه » . ثم نأتى إلى

الصفحات الأخيرة فى روايته الأخيرة ، فى نهاية هذا الصراع العملاق مع الإله ، حيث يسأل بعض الأطفال أليوشا : « هل صحيح يا كارامازوف مايقوله الدين من أننا سنبعث من القبور ، وسنرى بعضنا البعض من جديد ؟ » ويجيب أليوشا : « طبعاً سنرى بعضنا البعض من جديد ، وسنقص على بعضنا البعض كل شيء حدث لنا وكلنا فرح . »

وهكذا ينهزم كيريلوف وستافروجين وإيفان . وتكون رواية « الاخوة كارامازوف » هى رد دستويفسكى على رواية « الممسوسون ، وهى فعلا الخاتمة . إن أليوشا ليشبه الأمير موشكين. وكان الأخير مريضاً ، فعاش فى حاضر مستمر . كان يبتسم دائماً ولا يبالى ، وكانت حالته تلك هى فى نظره الحياة الأبدية التى كان يتحدث عنها . أما أليوشا فكان يقول « سوف نلتقى من جديد » ، لم يكن يفكر فى الانتحار أو الجنون ، فأى رجع للانتحار أو الجنون لمن كان يؤمن بالخلود وأفراحه ؟ لقد استبدل الانسان ألوهيته بالسعادة . سنلتقى وسنقص بعضنا على بعض قصص ما حدث لنا وكلنا نشوة . وهكذا يدوى مسدس كيريلوف مرة أخرى فى مكان ما فى الروسيا ، لكن العالم يستمر فى البحث عن آماله العمياء ولم يفهم الناس هذه « الآن » .

ومن ثم فدستويفسكى وهو يخاطبنا ليس ككاتب أبسوردى لكن ككاتب وجودى، وهو يقفز قفزة كيركجورد، وهى قفزة تهزنا لأنها قفزة مصدرها نبل الفن الذى يلهمها . ولقد كتب دستويفسكى عن روايته « الاخوة كارامازوف» « أن أهم ماعالجته هنا هو نفس ماعانيت منه بوعى أو بغير وعى طوال حياتى : هذا السؤال : هل الله موجود أم غير موجود . » ومن الصعب أن نعتقد أن ماعاناه طوال حياته يمكن أن تحيله رواية إلى يقين مبهج ، حتى لقد علق أحد النقاد [1] عن صواب أن دستويفسكى

(١) بوريس دى شلويزر

كان فى جانب إيمان ، وأن الفصول النهائية أخذت منـــه ثلاثة أشهر ، بينما استغرقت كتابة الصفحات التى تنضح بالكفر ثلاثة أسابيع لاغير ، كتبها فى هياج . ولا توجد شخصية لم يصورها دستويفسكى فى رواياته بدون الشوكة المغروسة فى اللحم . وموقف الشخصية منها هو زيادة غرس الشوكة أو علاجها بالانفعال العاطفى أو السعى خلف الخلود [1] .
وعلى كل فكتب دستويفسكى تعرض لنا صراع الانسان ضد آماله . وبعد أن يصل الخالق إلى النهاية يختار ضد شخصياته . وهو تناقض يسمح لنا بأن ننبه إلى ضرورة التفرقة بين شيئين : أن مؤلفات دستويفسكى ليست مؤلفات أبسوردية ، رغم ماتحوى من أبسورد ، لـكنها مؤلفات تعالج المشكلة الأبسوردية .

ودستويفسكى يرد على المشكلة ، على لســـان ستافروچين ، ورده فيه حسم المشكلة . لـكن المؤلف الأبسوردى لا يعطينا رداً . هذا هو الاختلاف الوحيد بين الموقف الأبسوردى فى الأدب وبين موقف غير الأبسورديين فيه ، والشىء الذى يعيبه الموقف الأبسوردى على هذه الروايات ليس هو أنها مسيحية اللهجة، بل ماتقدمه لنا من حياةمستقبلة ، فمن الممكن أن تكون مسيحياً وأبسوردياً ، وهناك مسيحيون لايؤمنون بالحياةالآخرة . ولعل من أهداف هذا الكتاب إلقاء الضوء على أبسوردية الانجيل ، وتوضيح مانراه من أن العقائد لا تمنع صاحبها من أن لايؤمن ولقد أعطانا دستويفسكى فى « الممسوسون » مثلا لذلك ، فقد سار بنا فى طريق وانتهى بنا فيه إلى نهاية مختلفة تماما ، ومن المدهش أن الخالق يرد على حيرة شخصياته ، أو أن دستويفسكى يرد على كيريلوف بما معناه : إن الوجود وهم ، وهو أبدى فى نفس الوقت .

***

(١) يقول أندريه چيد هنا أن كل أبطال دستويفسكى لهم علاقات بأكثر من امرأة .

وإذن فالأمل شيء يتردى فيه الخالق ، وهو قد يعترض حتى هؤلاء الذين يريدون التحرر منه ، أو أن هذا هو ما وجدته فى روايات دستويفسكى التى عرضتها . لكنى مع ذلك أستطيع أن أعدد عددا من الروايات استطاع خالقوها أن يتفادوا الأمل[1]. لكننا كثيراً ما نلاقى فى نهاية المنطق الأبسوردى الأمل يزحف متخفياً خلف إحدى لمساته . وكلما رقت اللمسة كلما ازداد تخفى الأمل ، لكنه دائماً هناك . وهذه هى الصعوبة فى الأبسورد ، وهو ما دعانى إلى كتابة هذا البحث .

لكن إذا كان من السابق لأوانه أن أعدد الروايات التى كتبت ملتزمة للأبسورد ، فلاأقل من أن نتحدث عن الاتجاه الخلاق فى الأبسورد ، وهو أحد الاتجاهات التى يمكن أن تكامل الوجود الأبسوردى . ولا يمكن أن يفيد الفن مثلما يفيد من الفكر السلبى ، فطريق التواضع ضرورى لاستيعاب أى عمل عظيم ، مثلما يكون اللون الأسود ضرورى لاستيعاب اللون الأبيض . إننا نعمل ونخلق « للاشىء » ، نقد الطين تماثيل ، ونعرف أن خلقنا لا مستقبل له ، وقد نرى ما خلقنا يتحطم فى يوم ، ونعى أن ما تحطم فى يوم ليس أقل ولا أكثر مما قد يستمر موجوداً لقرون . هذه الحكمة الصعبة التى يبشر بها الأبسورد ، وطريق الخالق الأبسوردى هو أن يمارس الاثنين معاً فى نفس الوقت ، النفى والتكبير . لابد أن يعطى للخواء ألوانه .

---

(١) (أ) منها « موبى ديك » لميلفيل .
(ب) ومنها كذلك « اللامنتمى » لألبير كامى نفسه . لكن « الغثيان » لسارتر تنتهى بالأمل رغم المشكلة الأبسوردية التى تعرضها .

ع ١٠

ويؤدى هذا إلى تصور خاص عن ماهية العمل الفنى ، فعمل الخالق هو عمل متتابع ، يبدأه بالعمل الأول ويتتابع حتى نهاية حياة الفنان . والفكر سيوله مستمرة ، وهو مشروع دائم ، مثل الحياة ، فتجربة الحياة لا تنتهى إلا بالموت ، لكن طالما هناك حياة فلا شكل لها ثابت ، ولكنها دائما فى حالة تشكل .

وهكذا العمل الفنى للمبدع ، فهو يتابعه من عمل لعمل ، ومن زوايا مختلفة ؛ فهى تتتابع ، وتكمل بعضها البعض ؛ تصحح بعضها البعض أو تخطىء بعضها البعض أو تناقض بعضها البعض . وإذا كان هناك شىء ينهى عملية الخلق فلن يكون هذا الشىء إعلان الفنان فى انتصار : «إنى قد قلت كل شىء » ، لكنه سيكون موت الخالق ، هذا الموت الذى يختتم به تجربته وكتاب عبقريته .

وليس هناك خلق حقيقى بلا سر يطويه الخالق بين جوانحه . وعندما يموت الخالق فإنه يخلف مجموعة كتبه أو فشله ، فإذا كانت كتبه تحمل نفس الصوت فإن معنى ذلك أن الخالق قد حاول أن يكرر صورة حالته ، قد حاول أن يجعل الهواء يردد صدى السر العقيم الذى يحمله .

* * *

ومن اندماجهما يكتشف إنسان اللامعقول نظاماً يخلق فى ظله أعظم ما يمكن أن تأتى به قواه . ويشبه الخالق فى ذلك الغازى ، فى مثابرته وخفته ووضوحه .

والخلق هو إعطاء شكل لقدر المبدع . أما عن الشخصيات نفسها ، فعملها يحددها على الأقل مثلما تحدده هى نفسها ، فهكذا علمنا الممثل : أن ليس هناك حدود بين الكينونة وبين المظهر . .

أسطورة سيسيف

حكمت الآلهة على سيسيفوس بأن يدحرج للأبد حجراً يبدأ به من أسفل الجبل حتى يصل إلى القمة ، ثم إذا وصل إلى هناك سقط الحجر متدحرجاً بحكم ثقله ، فيبدأ سيسيفوس من جديد وهكذا . فكأنما حكم الآلهة أنفسهم بأنه لا أفظع من الحكم على إنسان بأن يعمل بلا جدوى ولا أمل .

ولو جاز لنا أن نصدق هومر لقلنا إن سيسيفوس كان من أكثر الناس حكمة وعقلا . وفى رواية أخرى أنه كان يمتهن السطو على المسافرين فى الطرق الزراعية . ولست أرى سبباً يجعل مهنته تلك التى امتهنها شيئاً غريباً . إنما الاختلاف كان حول الأسباب التى دعت الآلهة إلى الحكم عليه بهذا العمل اللامجدى . وأول هذه الأسباب أنهم اتهموه بالاستخفاف بالآلهة بأن سرق أسرارها ، وكان جوبيتر قد اختطف إيجينا ابنة إيزوبس وانزعج الأب لاختفاء ابنته واشتكى لسيسيفوس . وكان الأخير يعلم بالاختطاف ، فعرض على الأب أن يفشى له سر اختفاء ابنته على شرط أن يعطى إيزوبس الماء لسكان قلعة كورينث . لم تزعجه إرعادات السماء وفضل عليها أن يسألها عطية الماء ، الأمر الذى ترتب عليه أن أنزلت به الآلهة العقاب بأن أرسلته للعالم السفلى . وفى رواية أخرى يقول هومر إن ذنب سيسيفوس أنه قيد الموت ووضعه فى الأغلال ، فاغتاظ بلوتو ولم يستطع أن يتحمل مشهد امبراطوريته خالية مهجورة صامتة ، فأرسل إله الحرب ليحرر الموت من أيدى سيسيفوس .

ويقال كذلك إن سيسيفوس وقد قارب على الموت أراد بجنون أن يجرب حب زوجته له فأمرها أن تلقى بجثته غير مدفونة وسط ميدان عام . ومات سيسيفوس ليصحو فى العالم السفلى وغاظه أن تطيع زوجته أمره . كان

يريدها أن تهمل عقلها وترى أن أمره لها مناف للحب الإنسانى ، لكنها نفذته فقلق ، وطلب من بلوتو إذناً بالعودة إلى الأرض كى يعاقب زوجته ، لكنه عندما رأى من جديد وجه الأرض وذاق الماء ولسعته الشمس وتحسس الأحجار فى دفئها وغطس فى ماء البحر ، رفض أن يعود لعالم الظلام ولعنه ، ولم يخفه تهديد ولا وعيد ، ومرت السنوات وعاش مواجهاً حافة الهاوية والبحر المتلألىء وابتسامات الأرض . وكان لابد أن تجتمع الآلهة وتصدر قرارها فى ذلك ، ونزل ميركورى وأمسك بالضال من من رقبته وانتزعه من مسراته واضطره بالقوة إلى النزول إلى العالم السفلى وأعلنه بالحكم : أن يظل يحمل الصخرة حتى أعلى الجبل لتهبط ويعيد الكرة وهكذا .

وهكذا نرى أن سيسيفوس هو البطل الأبسوردى . إنه هذا البطل بحكم عواطفه وعذاباته . واستحق هذا العقاب البالغ الذى يندفع به كيانه كله لتحقيق لاشىء ، استحقه لأنه احتقر الآلهة وكره الموت وأحب الحياة بحماس ، وهذا هو الثمن الذى كان عليه أن يدفعه لقاء ما تمتع به من مباهج الأرض . ولا تقول لنا رواياته المختلفة شيئاً عن حياته فى العالم السفلى ، وإنما تترك لنا الأساطير هذا الأمر لخيالنا ينفث فيها الحياة . ولا نرى فى هذه الأسطورة إلا الجهد الذى يبذله الجسم كله مندفعاً ليرفع الصخر الضخم ، يدحرجه ويدفعه إلى أعلى مئات المرات من جديد . ونستطيع أن نتخيل وجه صاحبه وقد زمت ، وخده قد التصق بالحجر ، والكتف ينفعل بالكتلة المتربة ، والقدم يسنده ، وهو يبدأ من جديد وذراعاه ممدودتان على آخرهما ، وكفاه مبسوطتان قد كساهما الطين ، واستند عليهما تماماً . وفى نهاية النهاية لجهده الطويل ، وقد استغرق فيه فى مكان وزمان لا سماء لهما ولا عمق ، يصل بالحجر إلى القمة ، وحينئذ يرقب سيسيفوس الحجر ينزلق مندفعاً ، فى لحظات ، إلى العالم السفلى ليبدأ به

من جديد إلى القمة ، ويهبط سيسيفوس إلى السهل .

وهنا أعجب بسيسيفوس وهو عائد أثناء تلك الهدنة بين الدفع الأول والدفع الثانى . لقد تحول وجهه إلى حجر هو نفسه من طول ما جهد مع الحجر . وأتخيل هذا الإنسان نازلا بخطوات متثاقلة لـكن ثابتة إلى العذاب الذى لا يعرف له نهـــاية . تلك الساعة ، كالوقت الذى يستغرقه التنفس ، والتى تعود دائماً كما تعود إليه عذاباته ، هذه هى ساعة الوعى . وفى كل لحظة من تلك اللحظات ، عندما يترك المرتفعات وينحدر تدريجياً إلى عرائن الآلهة ، أجده أسمى من قدره ، أقوى من صخرته .

وإذا كانت هذه الأسطورة مأساوية فذلك لأن صاحبها واع . ومن أين يمكن أن يتأتى العذاب فى وجوده إذا كان لديه أمل فى النجاح مع كل خطوة يخطوها ؟ إن عامل اليوم يعمل كل يوم فى حياته فى نفس الأعمال ، وهذا القدر الذى لعامل اليوم ليس أقل أبسوردية . لـكنه مأساوى فقط فى اللحظات النادرة التى يصبح فيها واعيا . إن سيسيفوس ، بروليتارى الآلهة ، الذى لا قوة له ، والمتمرد ، يعرف مدى حالته البائسة كلها ، إنها ما يظنه خلال هبوطه .

ان عذاباته واضحة جلية ، وانتصاره واضح كذلك ، ولا قدر هناك لا يمكن أن يتجاوزه الاحتقار .

***

فإذا كان سيسيفوس يهبط أحياناً فى حزن ، فهذا الهبوط نفسه يمكن أن يتم بفرح . وعندما أقول بفرح لا تستكثر التعبير . إننى أتخيل سيسيفوس من جديد عائداً إلى صخرته . ومتى كان أسفه ؟ أعتقد أنه كان فى أول الأمر ، عندما كانت صور الأرض لاصقة بشدة إلى الذاكرة ، وعندما كان نداء السعادة يدوى فى إصرار ، عندها تنبثق الـكآبة فى القلب البشرى نتيجة الإحباط : وهذا هو ما تمنحه

إياه الصخرة من انتصار ، إنه نصر الصخرة ، وهو الصخرة ، نفسها : إنها تخلصه من كل ذلك . إن الحزن لا حد له ، وهو ثقيل ثقلا لا يحتمل . لـكن مع تعود هذه الحقائق الساحقة تموت الحقائق . وهكذا أطاع أوديب القدر فى البداية عندما لم يكن يعرفه ، لـكنه من لحظة أن عرف به تبدأ مأساته. لـكنه مع ذلك يدرك فى نفس الوقت ، وهو أعمى يائس ، الرابطة الوحيدة التى تربطه إلى العالم ، رابطة باردة هى يد ابنته . وعندئذ تدوى هذه الكلمات : « بالرغم من كل مادخلته من امتحانات ، فإن شيخوختى ونبل روحى يجعلانى أقول مع ذلك : إن كل شىء على مايرام » وهكذا يعلن أوديب سوفوكليس انتصار الأبسورد مثلما فعل كيريلوف دستويفسكى . إن الحـكمة القديمة لتؤكد البطولة الحديثة .

ولا يكتشف الإنسان الأبسورد دون ن يغريه ذلك بكتابة كتاب عن السعادة . « ماذا ؟ أبهذه الطرق المؤسفة ..؟» على أى حال لايوجد إلا عالم واحد . والسعادة والأبسورد هما ابنا نفس الأرض ، وهما لاينفصلان . ومن الخطأ أن نقول إن السـعادة تنبع بالضرورة من اكتشاف الأبسورد . فمثلما تنبع السـعادة من اكتشاف الأبسورد فـكذلك يتأتى الأبسورد من الإحساس بالسعادة . ولقد قال أوديب : « كل شىء على مايرام » ، وقولته هذه قولة مقدسة ، فهى تدوى كالأقوال المقدسة فى عالم الإنسان الوحشى المحدود ، وهى تعلمنا أن كل شىء لن ولم يستنفد بعد ، وتطرد من هذا العالم إلها تـكوّن فيه من عدم رضى البشر عن أحوالهم ومعاناتهم لعذابات لاجدية، فتطلعوا إلى عالم أفضل وخلقوا إلهاً يلجأون إليه ليخفف عنهم أو يعدهم بعالم أفضل ، فلاعذاباتهم خفّت، ولا أحد رجع من الموت ليقول لهم إن هناك عالماً أفضل . وهكذا تجعل قولة أوديب من القدر مسألة إنسانية لا تحل فى السماء ، لـكن على الأرض ، بين الناس .

وإن سيسيفوس لفرح ، وفرحته صامتة . وهو فرح لأن قدره هو قدره هو دون سواه ، وأن صخرته هى صخرته هو دون غيره . وهو إذ يتأمل عذاباته يسكت كل الأصوات التى بداخله إلا صوته ذاته . يسكت كل الأوثان . يعيد إلى العالم صمته ، وفجأة لا تكون هناك إلا آلاف الأصوات الصغيرة التى تتفجر من الأرض وتشمل الكون : دعوات من كل الوجوه ، نداءات مستمرة لا واعية ، وكلها عن النصر ، والشكل المناقض له بالضرورة ، مثل الشمس لابد لها من ظل ، والنهار لابد له من ليل ، ولسوف يقول إنسان الأبسورد أجل ، ولن يتوقف عن بذل كل ما يستطيع ، ولو كان لكل منا قدره فلا يمكن أن يكون هناك مصير أعلى فى نفس الوقت ، إذ لا يتفق أن يكون لى مصير وهناك مصير آخر أعلى ، وإلا كان هناك على الأقل هذا المصير الأعلى وحده دون مصيرى ، وهو مصير حتمى وتافه . لكنى على يقين من أنه لا يوجد إلا مصيرى . وأنى سيد أيامى . وفى تلك اللحظة الدقيقة ، عندما يعود الإنسان بنظره للوراء ؛ ويتطلع إلى حياته كيف كانت ، وعندما يرجع سيسيفوس إلى صخرته ، فى تلك اللحظة المصيرية القصيرة ، يتأمل هذه المجموعة من الأفعال غير المترابطة التى تصير قدره ، والتى يخلقها هو ، والتى ترتبط تحت عين ذاكرته ، والتى يختمها موته القريب . وهكذا يتمتع بالأصل الإنسانى الخالص لكل ماهو إنسانى ، فيستمر فى الحياة ، أعمى يشوقه أن يرى ، ويعرف أن الليل بلا نهاية ؛ ويستمر فى الحياة ، وتستمر الصخرة تتدحرج .

وأدع سيسيفوس عند أقدام الجبل . إننا نعود دائماً إلى أحمالنا من جديد ، لكن سيسيفوس يكررنا بالاخلاص ، أعلى إخلاص ، الذى ينفى وجود الآلهة ، ويرفع الصخور . وهو ينتهى بأن يقول أن كل شىء على مايرام ، وأن هذا العالم بلا سيد ، وأنه مع ذلك ليس مجدباً ولا مجدياً ، وأن

كل ذرة من ذرات هذا الحجر ، وكل حصوة فى هذا الجبل الذى يكسوه الليل ، هو عالم قائم بذاته . ويكفى الانسان هذا الصراع الذى يملأ قلبه ، والذى يسير به إلى القمم ، يكفيه ذلك ، ويكفى سيسيفوس ، وعلينا أن نتخيله سعيداً .

* * *

الأمل والأبسورد فى مؤلفات فرانز كافكا

***

يهدف كل فن فرانز كافكا إلى إجبـــار القارىء على إعادة قراءة ما قرأ . وتوحى نهاياته ، أو غياب وجود نهايات ، بتفسيرات معينة لا تفصح عنها اللغة عندما نستخدمها استخدامها العادى ، لكننا لكى نفهم هذه التفسيرات نجد أننا مضطرون إلى إعادة قراءة ما قرأنا من وجهة نظر تخالف وجهة النظر الأولى التى خرجنا بها من القراءة الأولى ، حتى ليبدو أحياناً أن هناك تفسيرين يتطلبان قراءتين . وهذا هو ما يريده الكاتب ، لكننا لو حاولنا تفسير كل شىء فى كافكا تفصيلا لجانبنا الصواب ، لأن الرمز شىء عام لا يقبل الدخول فى التفصيلات ، ثم أن الفنان لا يستطيع أداء ترجمة دقيقة لنص إلا إذا ترجم الحركة وحدها . أما أن نترجم النص كلة كلة ، أن نفك الرموز كلة كلة فهذا مستحيل ، وعلاوة على ذلك فليس أشق على النفس من فهم العمل الرمزى ، والذى يحاول أن يترجم الرمز يجد فيه شيئاً دائماً يتجاوزه ، ثم هو يفسره طبقاً لواقعه هو ، الواقع الذى لا يتحمله الرمز . ولذلك نخير الطرق لقراءة العمل الرمزى هو الدخول إليه بلا فكرة مسبقة عنه . ثم أن

لا نحاول أن نتكشف خباياه ، وخصوصاً أعمال كافكا بالذات : يجب أن نقرأها كما يطلب إلينا كافكا قراءتها : أن نرى الدراما التى فيها من ظاهرها ، والرواية من شكلها .

وتبدو مؤلفات كافكا ، من النظرة الأولى وللقارىء العابر ، مجرد مغامرات تقوم بها شخصيات تحمل خيط مشاكلها دون أن تبت فيها برأى . ففى « المحاكمة » يُتهم جوزيف ك ، لكنه لا يعرف تهمته ، وهو يريد ظامئاً أن يدافع عن نفسه ، لكنه لايعرف لماذا ، ويجد المحامون قضيته قضية صعبة . وأثناء معايشته لها لاينسى ك أن يحب وأن يأكل أو أن يقرأ الجريدة . ثم تبدأ المحاكمة ، لكن ساحة المحكمة تبدو مظلمة ، وهو لا يفهم كثيراً ما يقال ، لكنه يبدو عليه كأنه أدين . لكن ما هى تهمته ؟ لا يدرى ، حتى أنه أحيانا ما يصدق هو نفسه أنه مذنب ، ومع ذلك يستمر يعيش . ثم يأتيه رجلان مهندمان مؤدبان ويدعوانه إلى أن يتبعهما فيأخذانه إلى ضاحية من الضواحى البائسة ، ويضعا رأسه على حجر وينتزعا زوره . وقبل أن يموت لا يقول إلا هذه الكلمات فقط : « مثل كلب » .

وهكذا نرى أنه من الصعب أن نتحدث عن الرمز فى حكاية تتسم بسمة رئيسية هى الطبيعية ، والطبيعية مذهب صعب الفهم . وهناك مؤلفات تبدو فيها الأحداث شيئاً طبيعياً للقارىء ، وهناك مؤلفات (نادرة طبعاً) تتصرف فيها الشخصيات كما لو كان ما يحدث لها شىء طبيعى .

وكلما كانت الحوادث غريبة وشاذة كلما لاحظنا أن القصة صارت طبيعية ، فالطبيعية هى الالتقاء بين غرابة حياة الشخصية وبين البساطة التى تتقبل بها الشخصية الغرابة . وهذه الطبيعية هى سمة فن كافكا ، ونحن نعرف بالضبط ما تعنيه « المحاكمة » .

إنهم يقولون إنها صورة لوضعية الإنسان ، وهى كذلك . فعلا ، وهى

بهذه الصفة بسيطة ومعقدة ، وأعنى بذلك أن معنى الرواية هو معنى يلتصق أكثر بكافكا ، فهو شيء خاص به ، وكافكا هو نفسه ، إلى حد معين ، الذي يتحدث في رواياته ، أو أنه هو الذي يعترف . إنه يعيش ويُدان ، وهو يعلم ذلك من الصفحات الأولى للرواية التي يتابعها في العالم ، وإذا كان يهمه أن يواصل الحياة في العالم والكتابة فهو يفعل دون أي حماس ، فالعالم بلا حماس ، وهو لا يظهر لعدم حماسه أي حماس . وهنا نتعرف على الإرهاصات الأولى للأبسورد ، إن العقل يبرز دافعاً إلى المادى مأساته الروحية ، وهو إذ يفعل ذلك لا يتم له ما يريد إلا بالتناقض المستمر الذي يسقط على الألوان القدرة على التعبير عن الخواء ، ويضفى على روتينية الحركة اليومية القوة على ترجمة الأمل في الأبدية .

وربما كانت « القلعة » كذلك حركة ، ولكنها حركة لاهوتية ، أو أنها لاهوت في انفعال حركي ، لكنها قبل ذلك مغامرة فردية لروح في بحثها عن مجد ذاتها ، وهى مغامرة يقوم بها إنسان بمفرده ساعياً خلف السر الملكي لموضوعات هذا العالم ، ولعلامات الله الراقدة في النساء . وتقوم رواية « التحولات » بدورها على التصورات البشعة التي تجرى في ذهن إنسان أخلاقى ، وهى كذلك نتاج الدهشة التي تعتور الإنسان اعتواراً بغير حساب عند ما يكون واعياً بالحيوان الذي يتحول إليه تحولا دون جهد مبذول منه .

وفى هذه الثنائية يكمن سر كافكا ، هذا التردد بين ما هو طبيعى وبين ما هو شاذ ، بين ما هو فردى وبين العالم . بين المأساوى وبين الحياة اليومية . بين الأبسورد وبين المنطق . هذا التردد نجده خلال مؤلفاته كلها ، وهو ما يعطيها معناها والنغمة الحادة التي بها . هذه هى التناقضات التي وجدنا أننا لا بد أن نعددها فيها ، وهى تناقضات قوّاها كافكا نفسه

حتى نستطيع أن نفهمها ، وهى نفسها التناقضات التى يجب أن تتسم بها المؤلفات الأبسوردية .

ويصل الرمز بين عالمين من عوالم الأفكار والأحاسيس ، ونحن إذ نستيقظ على هذين العالمين وقد تقابلا وجها لوجه إنما لنعى فجأة أسرار علاقاتهما . ونحن نجد أن هذين العالمين عند كافكا هما عالم الحياة اليومية ، وعالم القلق فوق الطبيعى[1] ، حتى لكأننا نشهد تحقيقاً الملاحظة التى ألقاها نيتشه عند ما قال . « إن المشاكل الكبرى فى الشارع » .

ومن الشائع فى كل الآداب أن الإنسان فيه اللامعقول الذى يبطن حقيقة وضعه ، وفيه النبل النهم الذى لا يهدأ أبداً . ويعمل الاثنان معاً ، وهو شىء طبيعى ، ويتمثل الاثنان فى المفارقة والتنازع الحادثين بين إغراقنا الروحى وبين اندفاعنا فى شهوات الجسد . واللامعقول هو أن تستعلى روح الجسد على الجسد ، ومن يريد أن يصور هذه اللامعقولية عليه أن يعطيها الحياة بأن يصورها فى سلسلة متتابعة من التناقض المتوازى ، بمعنى أن يؤرجح الإنسان ما بين الاثنين . وهكذا يعبر كافكا عن المأساة بأفعال ولغة الحياة اليومية ، ويعبر عن اللامعقول بالمعقول والمنطقى .

وكلما لم يغال الممثل فى تمثيل مأساة الشخصية التى يمثلها فإنه يبرز عنصر المأساة الذى بها ويقويه . فإذا كان عاديا فى تمثيلها جاءت بشاعة المأساة شيئاً غير عادى ، هذه هى الدروس التى أفدناها من المأساة الإغريقية ،

---

(١) يجب أن نلاحظ أن مؤلفات كافكا يمكن تفسيرها كذلك على أنها نقد اجتماعى موجه ، مثلا « المحاكمة » . ولا فارق عندنا بين أن تكون بهذا التفسير أو ذاك ، فكل تفسير لها صحيح ، ولكن التفسير الأبسوردى الذى نأخذ به هو هو التفسير الذى يعلن أن تمرد الإنسان يمكن أن يوجه ضد الناس وضد الإله كذلك ، ولذلك فكل الثورات الكبرى هى ثورات ميتافيزيقية .

ففي المأساة يعلن القدر دائماً عن نفسه متخفياً فيما هو منطقي وطبيعي .

وهكذا تعلن مأساة أوديب عن قدره مقدما ، فلقد تقرر ميتافيزيقياً أن يقتل أوديب ويمارس الجنس المحرم مع أمه؛ وكل جهد الدراما أن توضح لنا النظام المنطقي الذي يتوّج حظ البطل التعس . إنه يتوّجه من فعل إلى فعل ، والفعل الثاني يترتب على الأول ، كأنه يقول لنا إن القدر غير العادي قلما يكون بشعاً ، لأنه غير محتمل . لكن إذا كانت ضرورته تظهر لنا من خلال إطار الحياة اليومية والمجتمع والدولة والعاطفة المادية ، فإن هذه البشاعة تصبح شيئاً متوجا . وفي هذا التمرد الذي يهز الإنسان ويجعله يقول : « ليس هذا محتملا » يوجد عنصر يقيني يائس يقول إن « هذا » شيء ممكن .

هذا هو كل سر المأساة الإغريقية ، أو أنه على الأقل سر جانب من جوانبها ، لأنه يوجد جانب آخر يتبع نفس المنهج السابق لكن بقلبه ، ويساعدنا على فهم كافكا فهماً أحسن ، فالمعروف أن القلب الإنساني يميل ميلا متعبا إلى تسمية كل مايسحقه على أنه قدر . لكن السعادة هي كذلك كالبؤس لا أسباب لها ، وهي شيء لا يمكن تجنبه .

ونحن لن ننسى الطريقة الناعمة التي يربط بها كافكا بين المنطق والحياة اليومية وبين المأساة ، ولذلك جعل « سامسا » بطل « التحولات » بائعا متجولا يسافر متنقلا من مكان إلى مكان ، وهذا هو السبب أيضا الذي جعله يقلق في مغامرته مخافة أن يغضب رئيسه منه لغيابه . وهكذا تنمو منه سيقان وقرون استشعار ، ويتقوس عموده الفقري ، وتظهر بقع بيضاء على بطنه . ولن أقول إن هذا لم يدهشه ، لأن التأثير الذي يتركه علينا يفسد لو قلت هذا — ويسبب لك ذلك « بعض » الضيق . ويكمن كل فن كافكا في ذلك التمييز . وفي روايته « القلعة » ، وهي عمله الأكبر ، تبرز تفاصيل الحياة اليومية ، ومع ذلك

فى تلك الرواية الغربية التى لا يتم فيها شىء ، والتى يبدأ فيها كل شىء من جديد ، لا نجد مايبرز فيها بشكل ضخم إلا مغامرة تلك الروح فى بحثها عن التكامل .

وترجمته المشكلة إلى فعل ، والتقاء العام بالخاص هو ما يسم عمل كل مبدع عظيم ، وما نجده هنا وهناك منثوراً فى كتبه . وكان من الممكن أن يتسمى البطل فى « المحاكمة » باسم شميت أو فرانز كافكا ، لكنه يتسمى باسم جوزيف ك . وهو ليس كافكا ، ومع ذلك فهو كافكا . إنه مواطن أوروبى متوسط الحال ، يشبه أى أحد ، لكنه كذلك الشخصية ك المتميزة .

فإذا كان كافكا يريد أن يعبر عن الأبسورد فإنه يستخدم ماليس أبسورديا ، وحاله فى ذلك حال المجنون الذى كان يصيد فى حوض حمام ، فلما سأله الطبيب المعالج عما إذا كان السمك « بيقفش » أجابه المجنون فى انفعال « طبعاً لا ياغبى ، لأن هذا ليس بحراً . إنه حوض حمام » . وتصور هذه القصة إلى أى مدى يمكن أن يترابط الأبسورد بالمنطق ، وعالم كافكا هو عالم يظل فيه الإنسان يصيد سمكا فى حوض حمام وهو يعلم أنه لن يصيد شيئاً .

ومن ثم فإنى أجد فى مؤلفات كافكا مؤلفات أبسوردية فى مبدأها ، وأجد أن « المحاكمة » هى أعظمها ، لأنها لاينقصها شىء ، لا التمرد غير المعبر عنه (لكنه مكتوب) ، ولا اليأس الواضح الصامت (لكنه المبدع) ، ولا حرية الحركة المدهشة التى تتحرك بها الشخصيات حتى نهاية موتها .

* * *

ومع ذلك فليس عالم كافكا بالعالم المغلق كما يبدو ، ففى هذا العالم الذى لا يروج لفكرة التقدم يحاول كافكا أن يقدم الأمل فى شكل

غريب . ولا تتشابه « المحاكمة » و « القلعة » ، لكنهما رغم ذلك يكملان بعضهما البعض ، فالمحاكمة تقدم مشكلة والقلعة تحلها إلى حد ما . والأولى تصف طبقاً لمنهج شبه علمى ودون أن تصل لحل ، لكن الثانية إلى حد ما تشرح ، والمحاكمة تشخص ، لكن القلعة تتخيل العلاج ، ومع ذلك فالعلاج الذى تقترحه لا يطيب ، وإنما يعيد المرض من جديد إلى الحياة العادية . إنه يساعد على تقبلها ، وهو بمعنى من المعانى (وربما بمعنى من معانى كيركجورد) يجعل الناس يبحثون عن العلاج . إن مساح الأرض ك لايستطيع تخيل قلق آخر غير القلق الذى يعذبه .

ويرتبط الناس الذين حوله إلى هذا الألم الحاوى الذى لاسم له ، وكأنما العذاب شيء ممتاز يحسد عليه المرأ . وكأنما يقوله له « كم أنا محتاج إليك . كم أحس الوحدة عندما لا تكون معى . ما كنت أحسها إلا عندما عرفتك » . هذا العلاج الناعم الذى يجعلنا نحب ما يسحقنا ، ويجعل الأمل يشرق فى عالم لا أمل فيه ، هذه « القفزة » المفاجئة التى يتغير بها كل شيء هى سر الثورة الوجودية ، و « القلعة » نفسها .

ولا توجد أعمال كثيرة تتفوق على « القلعة » فى تطورها . ويعمل ك . مساح الأرض فى القلعة ، وهو يصل إلى القرية ، لكن الاتصال مقطوع تماماً بين القلعة والقرية . ويصر ك خلال مئات الصفحات على البحث عن طريقة ، ويحاول أن يتقدم ما أمكنه ، ويصطنع الحيل ، ولا يغضب أبداً ، ويحاول أن ينفذ الواجبات المنوطة به بنية خالصة . وكل فصل هو بمثابة إحباط جديد ، وهو أيضاً بداية جديدة ، وهو ليس المنطق الذى يسير بالرواية ، لكنه المنهج المثابر ، ومجال هذه المثابرة هو ما تتكون منه الصفة المأساوية للرواية ، وعندما يتحدث ك بالتليفون للقلعة يسمع أصواتاً مضطربة مختلطة وضحكات باهتة ونداءات بعيدة . وهو يكتفى بهذا غذاء لأمله ، يكتفى به كما نكتفى نحن بالتطلعات القليلة

التى نراها فى سماء الصيف أو الأمسيات اللطيفة، والتي نجملها نستمر فى الحياة . هنا نجد سر كآبة كافكا ، وهو نفس ما نجده عند بروست وبلوتينوس : حنين ظامئ مهووس لجنة ضائعة . وتقول أولجا « إنى أصير حزينة عندما يقول لى بارناباس فى الصباح أنه ذاهب إلى القلعة : تلك الرحلة اللاجدية ربما ، وذلك اليوم الضائع ربما ، وذلك الأمل الخاوى ربما » . « ربما » عليها يقامر كافكا بكل عمله . لكن لاشىء ؛ إن البحث عن الأبدى هنا هو بحث يعنى بأدق التفاصيل . وهذه الشخصيات الأوتوماتيكية ، شخصيات كافكا الملهمة ، تمدنا بصورة دقيقة لما يجب أن نكون عليه إذا كنا سنسلب مما يلهينا [1] ونفرغ تماماً لما يصيبنا من أرزاء السماء .

ويتحول الخضوع لروتين الحياة اليومية فى « القلعة » إلى قاعدة أخلاقية ، فأمل ك الأكبر هو أن يجعل القلعة تعترف به وتقبله ، وهو إذ يكون غير قادر على تحقيق هذا الأمل وحده ، ينصرف جهده كله إلى أن يحظى بشرف رضى القرية عنه حتى يصبح أحد مواطنيها وينتهى اعتباره أجنبياً . إن كل من فى القرية يعامله بحيث يحسه أنه أجنبى ، وهو لا يريد أن يكون أجنبياً ، إنما يريد أن يمتهن مهنة ويكون له منزل وحياة إنسانية صحيحة وعادية وهو لم يعد يتحمل جنون نفسه . يريد أن يحس أنه عاقل ، ويلقى عن نفسه اللعنة التى تجعل منه غريباً على القرية . وتلعب حادثة فريدا دورها هنا ، فإذا كان يتخذ منها عشيقة له فما ذلك إلا لأنها كانت عشيقة أحد موظفى القلعة . إنه يتخذها عشيقة

---

(١) يمثل هذه الملاهى فى « القلعة » مساعدو ك الذين يشدونه من قلقه ، بالمعنى الباسكالى . وإذا كانت فريدا تصير عشيقة لأحد المساعدين فذلك لأنها تفضل الواقع على الحقيقة ، والحياة اليومية على مقاسمة القلعة .

لمالها من ماض. إنه يستمد منها شيئاً يستعلى عليه، وهو فى نفس الوقت يعرف ما جعلها لا يستحق أن تكون من سكان القلعة. وإن هذا ليجعلنا نفكر فى حب كيركجورد الغريب لرجينا أولسن. إن فى بعض الرجال تتقد نار الأبدية وتأكلهم حتى ليحرقوا فيها قلوب من يكونون أقرب اليهم. والخطأ القدرى الذى يهب الإله ماليس للاله ليشبه محتوى هذه الحادثة فى « القلعة ». لكن مايبدو خطأ ليس بخطىء عند كافكا، بل هو مذهب، وهو « القفزة »، فلا يوجد شىء ليس للاله.

وعندما ينهى مساح الأرض علاقته بفريدا ليذهب إلى الأخوات برناباس نجد أن ذلك له دلالة أكثر من الحادثة الأولى، ذلك لأن أسرة بارناباس هى الأسرة الوحيدة المكروهة فى القرية والقلعة معاً، فآماليا الأخت الكبرى صدت أحد موظفى القلعة الذى طلب اليها أن تكون عشيقته، ومن ثم صارت مكروهة من القلعة، الأمر الذى جانبها حب الله، فعدم بذلها شرفها فى سبيل الله يشبه فعلها فعلا يستوجب لعنها منه، وهذه فكرة من أفكار الفلسفة الوجودية: الحقيقة فى تعارضها مع الأخلاق.

والطريق الذى يسير فيه بطل كافكا من فريدا إلى الأخوات بارناباس هو نفس الطريق الذى يؤدى بالحب الواثق إلى تأليه الأبسورد. وهنا نجد كافكا مرة أخرى يتشابه مع كيركجورد، ولهذا فليس من العجيب أن نجد « قصة بارناباس » تأتى فى ختام الرواية، وتكون آخر محاولات مساح الأرض هى العودة إلى الإمساك بالإله من خلال ما ينفيه، وأن يجده ليس طبقاً لمواصفاتنا عن الخير والجمال لكن بمواصفات الخواء والقبح الذى للامبالاته وظلمه وكراهيته. ويأتى ذلك الغريب الذى يطلب من القلعة أن تضمه إليها إلى نهاية سفريته بأن يكون أكثر نفياً لأنه صار هذه المرة غير أمين مع نفسه، قد تخلى عن الأخلاق

والمنطق والحقائق الفكرية ، ليحاول الدخول إلى صحراء الرضا الإلهي ، لارفيق يصاحبه إلا أمله المجنون [١] .

* * *

ولم يكن استخدامنا لكلمة « الأمل » هنا استخداماً معتسفا ، فنحن نعتقد على العكس بأنه كلما ازدادت المأساة التي يعنى كافكا بوصفها في روايته كلما ازداد الأمل ثباتاً وعنفاً ؛ وكلما كان الأبسورد في « المحاكمة » صادقا كلما كانت القفزة أكثر أثراً ، وغير مشروعة أكثر ، وأبعد في حماسها عن حماس « القلعة » . لكنا هنا ثانية في حالة نقية التناقض الموجود في الفكر الوجودي كما هو معبر عنه مثلا عند كيركجورد : « إن الأمل الأرضي لابد أن يقتل ؛ فحينئذ فقط يمكن أن ينقذنا الأمل الحقيقي [٢] » ، وهو ما نستطيع ترجمته هكذا « على الكاتب أن يكتب المحاكمة ليتبعها بالقلعة » .

وإن معظم من تحدث عن كافكا قد عرّف مؤلفاته بأنها صرخة يائسة بلا أمل للانسان . لكنا نحتاج إلى مراجعة هذا الكلام ، ففيها أمل وأمل . وعندي أن مؤلفات « أنري بوردو » رغم ما فيها من تفاؤل فهي ميئسة للانسان ذلك لأنها لا تترك له شيئاً يحكم عليه ويعمل فيه ذهنه . أما فكر « مالرو » فهو عكس ذلك يقوّي ويثير . لكنا لا نجد عند الاثنين لا نفس الأمل الواحد ولا نفس اليأس الواحد . ولست أرى سوى أن العمل الأبسوردي ذاته هو الذي قد يؤدي إلى

---

(١) يصدق هذا الكلام فقط على النسخة غير التامة من « القلعة » التي خلفها لنا كافكا ، لكنا نعتقد أنه ما كان سينهيها إلا هكذا فمن المشكوك فيه أن يحطم الكاتب في فصوله الأخيرة وحدة نغمة الرواية .

(٢) كيركجورد في « نقاء القلب » .

كذب أريد أن أتجنبه . إن العمل الذى ليس إلا تكراراً لاجدوى لموقف عقيم ، وتمجيد واضح للفناء ، يصير هنا مهدا لمجموعة من الأوهام . إنه يفسر الأمل ويعطى له شكلا ، ولا يصبح فى مقدور المبدع أن يفصل نفســه عنه . إنه ليس اللعبة المأساوية الذى كانها . إنه يعطى معنى لحياة المؤلف .

ومن الغريب فى أية حالة من الحالات السابقة أن تذهب الأعمال التى تتشابه مثل أعمال كافــكا وكيركجورد وشســتوف ، أو بالاختصار أعمال الروائيين والفلاسفة الوجوديين، التى تقول بالأبسورد ومايستتبعه، إلى إعلان صرخة الأمل هذه الهائلة على المدى الطويل . إنهم يحتضنون الإله الذى يستنفدهم . ويدخل اليهم الأمل من باب التواضـــع ، لأن أبسوردية هذا الوجود تقنعهم بوجود واقع ميتافيزيقى . وإذا كان طريق هذه الحياة هو طريق يؤدى إلى الله فإذن تــكون للعيش نتيجة ، وهى ما ينتهى اليه أبطال كيركجورد وشستوف فهم يصلون بالإصرار والمثابرة إلى تأكيد ذلك اليقين [1] .

ويرفض كافــكا كرم أخلاق إلهه وفضائله وكل ما يتصل بوجوده ، لــكن ليقع أكثر بين يديه . ويعترف كافــكا بالأبسورد ويقبله ويقبله مصيراً للانسان، لــكنه من هذه اللحظة لايبقى الأبسورد هو الأبسورد . وفى حدود وضعية الإنسان ، ما هو الأمل الذى يــكبر على الأمل الذى يمكننا من الهرب من تلك الوضعية ؟ وهأنذا أرى من جديد أن الفــكر الوجودى (وبعكس الرأى الجارى) غارق فى الأمل العريض ، نفس الأمل الذى راج أيام المســيحية الأولى والتبشير بالخير الذى كان يجتاح

---

(١) الشخصية الوحيدة التى بلا أمل فى «القلعة» هى أماليا ، وهى الشخصية التى تتعارض معها شخصية مساح الأرض تعارضاً عنيفاً .

العالم القديم . لكن في تلك القفزة التي تميز الفكر الوجودي كله ، في ذلك الإصرار ، في ذلك التمثل لإلهيات لا سطح لها ، كيف لا نستطيع أن نرى بوضوح التناقض الذي يلغي كل ماسبق ؟ إني لا أرى في ذلك الفكر إلا كبراً يغالط ويكابر لينقذ نفسه . ونفيه ذلك لنفسه هو نفي خصب . لكنه لايغير من كونه ينفي نفسه . ولا يمكن أن نقلل من شأن القيمة الأدبية للوضوح بأن نسميها عاقراً شأنها في ذلك شأن أي كبرياء ، لأن الحقيقة كذلك ، فهي بحكم تعريفها عاقر . وكل الوقائع كذلك أيضاً . وخصوبة القيمة أو الميتافيزيقا تصور يخلو من المعنى في عالم قد أعطينا فيه كل شيء ولا تفسير فيه لأي شيء .

ونحن الآن قد أدركنا ماهية الأرضية الفكرية التي قامت عليها مؤلفات كافكا . وكان تطور كافكا من « المحاكمة » إلى « القلعة » تطوراً حتمياً . وليس جوزيف ك ومساح الأرض ك إلا قطبين يشدان كافكا إليهما . وسوف أتحدث كما يتحدث كافكا وأقول إن عمله لايحتمل أن يكون أبسورديا ، لكن ذلك لايمنعنا من رؤية مابه من نُبل وعالمية ، ذلك لأنه حاول أن يمثل به بطريقة كاملة الطريق اليومي من الأمل إلى الحزن ، ومن الحكمة اليائسة إلى العمى القصدي . ومؤلفاته عالمية (مع ملاحظة أن العمل الأبسوردي الحقيقي لا يمكن أن يكون عالمياً) إلى درجة أنها تمثل وجه الإنسان مشحوناً في فراره من الإنسانية ، مستمداً من تناقضاته أسباباً للايمان ، وأسباباً للأمل الذي ينتشله من اليأس الذي يلهمه الإبداع ، والذي يجعله يسمي الحيـــاة مجرد استعداد للموت . ومؤلفاته عالمية لأنها مؤلفات دافعها الدين . والدين يحرر الانسان من ثقل حياته ، وكذلك مؤلفات كافكا . لكني لا أبحث في الأدب عما هو عالمي . إني قد أقرأ كافكا وأعجب به ، لكني لا أعجب به لأنه عالمي .

ما يهمنى ليس العالمية ولـكن ما هو حقيقى . الحقيقة وليست العالمية ، ولن يلتقى الاثنان .

ورأيى هـذا الذى أعلنه هنا قد يفهم أكثر لو أنى قلت الرأى المضاد ، والذى يقول بأن الأدب المأساوى الحقيقى هو الأدب الذى بعد أن ينفى كل أمل مستقبل ، يصف لنا حياة إنسان سعيد ، سعيد بعد أن عرف أنه لا أمل هنـــاك ، وصار يعيش فى الحاضر ، فى اللحظة ، لا فى المستقبل . وكلما عاش هذا الانسان فى حياته تلك الحاضرة المثيرة كلما أحس بلامعقولية فـكرة فقدانها . وربما كان هذا هو سر هذا الجفاف المتعالى الذى نحسه فى مؤلفات نيتشه ، فنيتشه يبدو الفنان الوحيد الذى خاص بأقصى نتائج الأبسـورد الجمالى تطرفاً ، مثلما تكمن رسالته النهائية فى وضوح عقيم منتصر ، وفى نفى عنيد لـكل عزاء ميتافيزيقى .

وعندما كتبت هذا المقال لم يكن هدفى شرح كل شىء عن كافـكا وتبيان أوجه العظمة فيه ، وإنما قادنى البحث فى الأبسورد إلى التحدث عن هذه الناحية وحـدها عنه ، فأهم ما يعنينى هنا هو الأبسورد الذى يبسطه كافـكا فى مؤلفاته . ولـكننا لو قارنا هذه النتائج مع ما لاحظته عنه ، ولو قارنا المحتوى بالشـكل ، والمعنى المستسر للقلعة بالفن الطبيعى الذى صيغ فيه ، وحماس ك وسعيه المـكابر بواقع الحياة اليومية الذى يجرى فيه ، حينئذ ندرك أية عظمة هى عظمة فن كافـكا ، لأنه لو كانت النوستالجيا هى سمة ما هو إنسانى ، فـكافـكا كان أعظم من كساها لحـــماً . لـكننا سندرك كذلك النبل الذى يبرزه الأبسورد والذى نفتقده عند كافـكا . ولو كانت طبيعة الفن تربط العام بالخاص ، وتبرز وقتية قطرة الماء بأضوائها التى تعكسها ، لـكان الأصدق أن نحكم على عظمة الـكاتب الأبسوردى بالمسافة التى بوسعه تقديمها بين هذين العالمين ، فسره يتركب من قدرته على العثور على النقطة المضبوطة التى يلتقيان

عندها والتى تمثل فى نفس الوقت أقصى حالات تنافرها .

والحقيقة أن هذا اللقاء الهندسى بين الإنسانى واللاإنسانى هو لقاء يحدث فى كل مكان بما فى القلب من نقاء . وإذا كان فاوست ودون جوان خلقين فنيين عاليين ، فهذا بسبب ما يقدمان لنا من نبالات لا عد لها يشيران إليها بأيديهما الأرضية . ومع ذلك فهناك حين من الوقت يأتى حين ينكر العقل هذه الحقائق التى تلمسها هذه الأيدى . وهناك حين من الوقت حينما لا يأخذ الناس الإبداع بمعناه المأساوى ، إنهم يأخذونه بجد لا غير ، ووقتها يهتم الانسان بالأمل ، مع أن الأمل ليس شغله . إنما كان من الواجب أن لا يهرب من النتيجة التى يعثر عليها ، أن لا يهرب من الأبسورد . ومع ذلك فهو يهرب ، وهذا ما وجدته عند كافكا : أنه يهرب . وهو يتحدث فى أدبه عن هذا العالم الكئيب القلق ، ومع ذلك يجعله حتى العظم يجرؤ على الأمل ويغرق فى الأمل [1] .

---

(١) ما قدمته هنا هو تفسيرى لكافكا ، لكن لا شىء يلغى اعتبار ما قدمت نقدياً جمالياً . ولقد فعل غيرى ما فعلته . مثلا « ب. جروثيزن » فى مقدمته الرائعة للمحاكمة ، حدد نفسه أكثر منا لما يسميه أحلام اليقظة . وربما كانت عظمة كافكا أنه يتيح فرصاً كثيرة للتفسير ، ويبيح كل شىء ولا يؤكد أى شىء .

كتب المترجم

مؤلفات :

١ — فن التأليف والتمثيل والإخراج للتلفزيون .
٢ — چان پول سارتر ، حياته ، أدبه ، فلسفته .
٣ — البير كامي ، حياته ، أدبه ، فلسفته .
٤ — تيارات ومذاهب أدبية وفنية جديدة ، أربعة أجزاء .
٥ — أزمة الحرية والفرد فى الماركسية (تحت الطبع) .

مترجمات

جان بول سارتر

١ — سجناء الطونا .
٢ — الممثل كين .
٣ — الشيطان والرحمن .
٤ — الوجودية مذهب إنسانى .
٥ — الماركسية والثورة .
٦ — الحرية والأدب .
٧ — الوجود والعدم (٥أجزاء)
٨ — تاريخ حياة طاغية .
٩ — موتى بلا قبور والمومس الفاضلة .

البير كامى

١ — العادلون .
٢ — الحصار .
٣ — سوء تفاهم .
٤ — المتمرد .

سيمون دى بوفوار

١ — الأفواه اللاجدية .

الناشر : مطبعة الدار المصرية
٢٢ شارع سامى بالمالية ت ٣٢٥٧٨ القاهرة ج.ع.م

يطلب
مكتب
عمارة
شارع طل
بالقا